إصدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - الجزائر

فرقة البحث (P.R.F.U): تاريخ وادي سوف الثقافي بين 1900-1988م

بحوث الملتقى الدولي السابع
المقاومة الثقافية لأعلام الفكر الإصلاحي
في الجنوب الشرقي الجزائري ما بين 1900 – 1962م

بتاريخ: 05 و06 ذو القعدة 1443هـ / الموافق لـ 04 و05 جوان 2022

مقومات الهوية في فكر النخبة الزيتونية بالجزائر
(طلبة إقليم الجنوب الشرقي الجزائري أنموذجاً)

The elements of identity in the thought of the elite of Al-Zaytouna Mosque in Algeria (students of the southeastern region of Algeria, as a model)

د/ خير الدين يوسف شترة

قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة الشارقة (الإمارات العربية المتحدة)

kchatra@sharjah.ac.ae

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:

إن مفهوم الهوية الجزائرية لدى الطلبة الجزائريين الزيتونيين بصفة عامة يندرج ضمن المفهوم الواسع للأمة الإسلامية، هذا الفضاء الإيديولوجي الذي يُشكل ملاذاً وحصناً لمجتمع يتهدده المسخ والذوبان، وقد مثَّل انتشار الحس العروبي في الجزائر ظاهرة ملفتة للانتباه بعد الحرب العالمية الثانية، بعد تراجع الإيديولوجية الإسلامية لدى النخبة الوطنية بانحلال الإمبراطورية العثمانية وإلغاء الخلافة، وهذا الاتجاه العروبي ليس إلا أحد الاشتقاقات المعدلة للجامعة الإسلامية، متكيفاً مع التحولات التي طرأت على العالم الإسلامي منذ نهاية القرن التاسع عشر، وبرز هذا الاتجاه العروبي في الجزائر في شكله السياسي بعد ظهور تيارين قويين سيطرا على الساحة السياسية والفكرية في الجزائر: التيار الإصلاحي المجسَّد في جمعية العلماء المسلمين والتيار الاستقلالي المجسَّد في حزب الشعب الجزائري وكلاهما ساهم فيه فصيل هام وكبير من خريجي الجامعة الزيتونية الذين مثَّلوا هذا الاتجاه الداعي إلى تحرير الجزائر في إطار يضمن اندماجها في العالم الإسلامي، وأصبح الاتجاهان (السياسي-الثقافي) يسيران على خطة واحدة بعد الحرب العالمية الثانية وإن اختلفت الوسيلة والطريقة فالخطة كانت قائمة على طلب الذاتية القومية الجزائرية ومقوماتها في الاندماج في العالم العربي.

لقد اضطلع طلبة إقليم الجنوب الشرقي الجزائري بدور تاريخي، حيث كانت لهم مواقف مشرفة في فترة الاستعمار المظلمة، وقد دلَّ ذلك على وعيهم وتفطنهم لوجودهم الرسالي، وعلى تنبههم لمشاريع ومخططات الاستعمار الفرنسي ضد الوجود العربي الإسلامي في الجزائر، كما جسّدت أدوارهم هذه حرصهم وتأكيدهم الدائم للحفاظ على مقومات هويتهم الجزائرية الحضارية.

ومن الإشكاليات الدقيقة التي سنطرحها في هذه الدراسة، ما المقصود بالأنتليجنسيا الجزائرية الزيتونية؟ ما هو نشاط نخبة إقليم الجنوب الشرقي الجزائري في الحياة الجزائرية؟ وما هي أدوارها في العمل الديني والإصلاحي والتعليمي والتربوي والثقافي والحضاري والسياسي والثوري؟ وما هي مظاهر دفاع النخبة عن مقومات الهوية الجزائرية؟ وما هو موقف السلط الاستعمارية من هذه النخبة وأدوارها؟

الكلمات المفتاحية:

خريجي جامع الزيتونة؛ الجنوب الشرقي للجزائر؛ جامع الزيتونة؛ الاستعمار الفرنسي؛ الاتجاه العربي الإسلامي.

Abstract :

The concept of Algerian identity among Algerian students at Al-Zaytouna University in Tunisia in general falls within the broad concept of the Islamic nation, this ideological space that constitutes a haven and a fortress for a society threatened by deformation and dissolution. This Arab tendency is only one of the modified derivations of the Islamic University, adapting to the transformations that have taken place in the Islamic world since the end of the nineteenth century, and this Arab tendency emerged in Algeria in its political form after the emergence of two powerful parties that controlled the The political and intellectual arena in Algeria: the reformist current embodied in the Association of Muslim Scholars and the independence movement embodied in the Algerian People's Party, both of which contributed to an important and large faction of Al-Zaytouna University graduates in Tunisia who represented this trend calling for the liberation of Algeria in a framework that guarantees its integration into the Islamic world, and the two trends became (The political-cultural) are following one plan after World War II and If the means and method differed, the plan was based on the request of Algerian national autonomy and its components for integration into the Arab world.

The students of the Algerian southeastern region played a historical role, as they had honorable positions during the dark colonial period. On the components of their Algerian cultural identity.

Among the subtle problems that we will raise in this study, what is meant by the Algerian elite? What is the activity of the elite of the southeast Algerian region in Algerian life? What are its roles in religious, reform, educational, educational, cultural, civil, political and revolutionary work?

Keywords:

Graduates of the Al-Zaytouna Mosque; southeast of Algeria; Al-Zaytouna Mosque; French colonialism; the Arab Islamic trend.

1. مقدمة

إن الطلبة الجزائريين الزيتونيين اضطلعوا كما هو معلوم سواء كان ذلك ضمن تنظيماتهم أو خارجها بدور ملحوظ في مقاومة الكيان الاستعماري وساهموا خاصة منذ أواخر الثلاثينيات في مختلف أطوار العمل التحرري بجميع أشكاله وعلى شتى مستوياته، كما جسّد هؤلاء الطلبة كذلك وإلى حد كبير المقاومة الثقافية للاستعمار وشكّلوا إحدى الدعائم والركائز الأساسية لهذه المقاومة التي حاولوا من خلالها الدفاع عن ذاتيتهم وأصولهم الإسلامية والتصدي إلى كل المشاريع والمحاولات الاستعمارية الرامية إلى تقويض المقوّمات والثوابت الحضارية للبلاد وتطويق وتهميش ثقافتها العربية وإضعاف الشخصية الجزائرية لتأهيلها في البوتقة الفرنسية، إن دراسة النشاط الطلابي إلى ما تسلّطه من أضواء على بعض مظاهر وأطوار النضال التحرري تُمثل أيضًا وبدون شك مدخلاً هاماً ومفيداً لاستقراء المشهد السياسي الجزائري، والوقوف عند العديد من المفاهيم والممارسات والتصوّرات التي أسست لنشأة وانتشار ثقافة سياسية ذات منحى شمولي، وإذا حاول الدارس أن يتتبع أدوار هذه النخبة الفكرية والسياسية بُغية استخلاص هذه النزعة عندهم فإنه لا يستطيع حصرها في موضوع معين من إنتاجهم، وبديهي أن هذه النزعة وليدة اتجاههم في الحركة الإصلاحية، ولعلّ النماذج التي سنذكرها لاحقاً تكفي دلالة في البرهنة على تجْلِية هذه الحقيقة الفكرية.

إن المجهودات التي بذلتها هذه النخبة العالمة لبعث المجتمع الجزائري بدأت بالوقوف ضد الطرقية وفرض اللغة العربية وإبراز الماضي التاريخي للجزائر، وذلك ما يجعلهم بمثابة المؤسسين الأوائل للوطنية الجزائرية، فإذا كان مصالي الحاج يريد بعث الدولة الجزائرية، فإن ابن باديس كان يفكر في بعث الأمة الجزائرية، وكلاهما يكمل الآخر(على رواية الأستاذ عدي الهواري). هذا وإن دراسة تاريخ النضال الطلابي الجزائري بمعزل عن أي اعتبار متميز وبمنأى عن أي خطاب تبريري من شأنها أن تساعدنا بدون شك على حسن إدراك الحركية الاجتماعية والتحولات الذهنية التي صنعت حركة التحرير الوطني، وهذا من شأنه أيضاً أن يسمح لنا بالعثور على عناصر الإجابة اللازمة لإدراك بعض التساؤلات المتعلقة بحاضرنا.

ومن أهم المميزات الرئيسة لهذه الدراسة أنها تلقي الضوء على قضايا تاريخية تتعلق بنضال فكري وسياسي لثلة من الطلبة الجزائريين المهاجرين إلى تونس والملتحقين بجامع الزيتونة والذين اعتبروا بمثابة العمود الفقري للحركة الإصلاحية والوطنية في الجزائر فيما بعد، ونحن عندما قمنا بهذه المبادرة العلمية لدراسة الوضعية العامة **للنخبة الزيتونية بالجزائر(طلبة إقليم الجنوب الشرقي الجزائري أنموذجاً)** والتعرّف على مستويات أنشطتهم في الجزائر إنما نأمل أن تكون هذه الدراسة مقدمة لدراسات مماثلة عن دور الطبقة الطلابية في صناعة الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية.

2. ماهية الأنتليجنسيا الجزائرية الزيتونية

في بداية هذا المبحث حقَّ لنا أن نتساءل عن مبرّر تسميتنا لمجموع خريجي جامع الزيتونة من الطلبة الجزائريين بالنخبة بدل أي مصطلح آخر يقصد به نعْت هؤلاء الطلبة، يقول برهان غليون «... إن نظام التربية والتعليم الذي يُكوّن العقل الاجتماعي أي مجموعة المعارف الضرورية للمجتمع للإنتاج والإدارة والتوجيه السياسي والاجتماعي والتاريخي، وهو ليس المدرسة بجدرانها وأشخاصها من طلبة وأساتذة، وإنما هو بُنية اجتماعية، علاقة بين طبقات وفئات مختلفة، تحدد علاقة بين نخبة مثقفة وأغلبية عامة أي نوعاً من تقسيم العمل...»[1] وهنا نجد أن غليون في تعريفه للنخبة قد ربط تعريفها بالمسألة الثقافية وبالتعليم ودرجة الوعي بصفة خاصة، وإذا ما أخذنا هذا التعريف والدور الهام الذي اضطلع به هؤلاء الطلبة الزيتونيين على امتداد كامل الفترة الاستعمارية في مقاومة الاستعمار بالجزائر أو تونس، وخدمتهم لقضايا البلاد السياسية والثقافية والدينية...، فإنه بالإمكان استخدام كلمة "نخبة" في وصف هؤلاء الطلبة بكل ما للكلمة من مدلول.

وبالمقابل يرى عديد الباحثين في الثقافة والفكر أنه ليس بالإمكان الحديث عن أنتلجنسيا* بالعالم العربي سواء كان ذلك بدول المشرق أو بدول المغرب، وعموماً من الصعب الحسم في مثل هذه المصطلحات التي غالباً ما تختلف من باحث إلى آخر ومن مدرسة إلى أخرى باختلاف المدارس والاتجاهات الفكرية المعاصرة.

من جهة أخرى وفي موضوع الهوية فإنه عندما يتكوّن لدى مجموعة بشرية الإحساس والاعتقاد والوعي بتقاسم نفس القيم، يمكن القول أنه يوجد داخلها "هوية ثقافية"معينة، وعليه فالهوية الثقافية ليست شيئاً موضوعياً يمكن قياسه من "الخارج"، فإذا كان هناك شخص غريب أصلاً عن دين معين أو أثنية معينة، واعتنق فيما بعد هذه الديانة أو شارك الإثنية قيمها، فإنه باستطاعته أن يتقاسم هذه المجموعة الدينية أو الإثنية هويتها الثقافية، ونفس الشيء بالنسبة للذي سوف يتخلى نهائياً عن دينه أو مجموعته الإثنية، يمكن أن يفقد هويته الأصلية، فالهويات الثقافية لها إطار وحدود هي الفضاءات المادية والجغرافية أو الثقافية التي يحتلها من يتقاسمون القيم المشار إليها، وإنه ليس من السهل دائماً - وأحياناً من المستحيل- التخلي الطوعي عن الهوية الأصلية لتبنّي هوية أخرى، ويبدو أنه يوجد في أعماق النفس البشرية تشكل ذهني معين مكتسب منذ مراحل الطفولة الأولى

1- برهان (غليون)، **مجتمع النخبة**، ط2، تونس: دار البراق، 1994م، ص16.

*- **أنتلجانسا:** هي في الأصل كلمة روسية تعني مجموعة من المثقفين داخل مجتمع ما حسب أنطونيو قرامشي تقوده وتنظّر له وتمثل ضميره الحي ووعيه الفاعل، للتوسع راجع:

- Gramsici (Antonio), **la Formation des Intellectuels, l'Organisation de la culture**, Paris: éd. sociales, 1977, PP (11- 12).

يظل دليلاً مرجعياً راسخاً والتي تجعل من المستحيل أحياناً حصول نوع من الانتقال الثقافي المتبادل، وهذا العائق هو بدوره ذو طبيعة ثقافية ليس مرتبطاً أصلاً بالتشكل الوراثي للأفراد والتخلي عن الثقافة الأصلية لاعتناق أخرى بصفة إرادية وطوعية طريق للوصول فعلياً لمعرفة الآخر لأنه يتطلب القطع مع الضغوطات البسيكولوجية للثقافة الخالصة لغاية فهم ثقافة الآخر، لكن هل يمكن أن ينطبق هذا الوضع على علاقة المجتمعات ذات الثقافات الغالبة مع المجتمعات ذات الثقافات المغلوبة.

وتجب الإشارة إلى أن مفهوم الهوية متصل إلى حد كبير بمصطلح حديث نسبياً هو مفهوم القوميات، وهو مفهوم ارتبط أساساً بتميز القوميات في القرن (19م)، ومن خلال عملية رصد سريعة لمقالات وأدبيات طلبة جامع الزيتونة وخريجيه تتكرر وتتواتر عديد المفاهيم والمصطلحات ذات الصلة بمفهوم الهوية مثل الأمة والذاتية والشخصية والكيان والسيادة والاستقلال وبالتالي تطرح مسألة الهوية في مختلف تمفصلاتها المشدودة إلى الأمة والشخصية والذاتية والثقافية واللغة والدين والتاريخ.

فالأمة تعني: جماعة المؤمنين أو المسلمين أو الجماعة الإسلامية كنقيض للانتماء القبلي أو العشائري كما تعني أيضاً: «مجموع الأفراد في "دار الإسلام" لا فضاءً جغرافيا محدداً، ولقد استعمل رجال السياسة في المغرب العربي ذوي اللسان العربي في الفترة المعينة بالمصطلح أو مفهوم الأمة الذي ترجم إلى اللاتينية بمصطلح شعب ووطن»[2]. ولم تتسرب المفاهيم الحديثة ذات العلاقة بالوطن/ الوطنية للتيارات السياسية والإيديولوجية إلى الجزائر وبلاد المغرب العربي عموماً حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، فليس هناك في ذلك العهد غير الجامعة الإسلامية القادرة على خلق وحدة معينة لمواجهة الهيمنة الغربية.

أما الوطن فيعني قبل القرن (18م) وكما ورد في "لسان العرب"[3] « مسقط الرأس أو مكان الإقامة أو الولادة»، ويمكن أن يعني حسب السياق، البلد والمقاطعة والمدينة أو القرية أو أراضي القبيلة ومدلوله الحديث والحامل مضمون إيديولوجي وسياسي فيعود إلى السنوات الأخيرة للقرن (18م). وبدأ هذا المصطلح في الانتشار في البلاد العربية الإسلامية منذ منتصف القرن 19م على يد ثلة من المفكرين العرب حينها من أمثال: (الطهطاوي، خير الدين باشا، ابن أبي ضياف)، فالمعيار الديني لم يعد المعيار الوحيد لتحديد الانتساب كما في السابق، من ذلك أن العناصر المؤسسة للذاتية الجزائرية، إنما هي الإسلام والأرض ومسقط الرأس وسلطة الانتماء بالدرجة الأولى.

وتنشأ الصراعات حول الهوية في غالب الأحيان في بعض المنعطفات التاريخية فصدمتا

2- السيد (رضوان)، **مفاهيم الجماعات في الإسلام**، بيروت: دار المنتخب العربي، 1993م، ص.ص(36- 37).
3- **لسان العرب**، مج4، ص574.

الحداثة والاحتلال خلقتا جواً من البلبلة هزَّت القيم والعلاقات وطرق التصور والتنظيم، حينها بدأ ولا زال حديث الهوية. ويتحدد مفهوم الهوية بناءً على الدلالة اللغوية والفلسفية والسوسيولوجية والتاريخية لهذا المصطلح، فهو يعني الشيء نفسه والتشابه والخصائص الدائمة والأساسية لشخص أو مجموعة كما أن مرادف الهوية هو الذاتية أو الشخصية ومجموع معطيات الواقع والقانون كتلك المتعلقة بتاريخ ومكان الولادة والاسم واللقب التي من شأنها تأكيد أن فرداً ما هو الشخص بعينه دون أن يقع اللبس مع شخص آخر.

وفي التراث الفكري العربي تعريفات كثيرة للهوية إذ عرفها "الجرجاني" بأنها: «الأمر المتعقل من حيث امتيازه عن الأغيار»، والهوية عند ابن رشد: «تقال بالترادف على المعنى الذي يطلق عليه اسم الموجود»، وعند الفارابي هي: «الشيء أي عيّنته وشخصه وخصوصيته ووجوده المتفرد الذي لا يقع فيه إشراك»، وبالتالي فالهوية هي الشفرة (الرمز) الذي يمكن للفرد عن طريقها أن يعرف نفسه في علاقته الاجتماعية التي ينتمي إليها والتي عن طريقها يتعرف عليه الآخرون باعتباره منتمياً لتلك الجماعة، وهي شفرة تتجمع عناصرها على مدار تاريخ الجماعة من خلال تراثها الإبداعي وطابع حياتها، وتتجلى الهوية كذلك من خلال تعبيرات خارجية شائعة مثل: الرموز والألحان والعادات التي تنحصر قيمتها في أنها عناصر معلنة تجاه الجماعات الأخرى وهي أيضًا التي تميز أصحاب هوية مشتركة عن سائر الهويات الأخرى وإن كان من الصعب تقديم تعريف للهوية لاختلاف الباحثين والمهتمين بهذا الموضوع فإنها على أية حال تتحدد من منطلق العلاقة بين الأنا والآخر، والهوية نسبية وليست أزلية، هوية متفتحة قابلة للتعديل والتكيف والتفاعل مع الهويات الأخرى، شريطة أن يتم ذلك باختيار واع، تفرضه الضرورة وتقرره الإرادة الجماعية.

إن وعي الهوية بمعنى الذاتية الجزائرية بدأ في البروز بين الأهالي الجزائريين في مطلع القرن العشرين عندما امتزجت أوضاع ناجمة عن النظام الاستعماري بظروف سابقة للاحتلال والمتمثلة في وحدة التراب ووحدة اللغة ووحدة الثقافة ووحدة العقيدة التي عزَّزت الروابط بين سكان البلاد وغذّت مشاعر الانتماء لتاريخ مشترك ودعّمت التقارب والوعي بالمصير الواحد مما ساهم في بروز نوع من اللحمة الوطنية. غير أن مفهوم الهوية الجزائرية لدى الطلبة الجزائريين الزيتونيين يندرج ضمن المفهوم الواسع للأمة الإسلامية؛ هذا الفضاء الإيديولوجي الذي يُشكل ملاذاً وحصناً لمجتمع يتهدده المسخ والذوبان وقد مثَّل انتشار الحس العروبي في الجزائر ظاهرة ملفتة الانتباه بعد الحرب العالمية الثانية، بعد تراجع الإيديولوجية العربية الإسلامية لدى النخبة الوطنية بانحلال الإمبراطورية العثمانية وإلغاء الخلافة وهذا الاتجاه العروبي ليس إلا أحد الاشتقاقات المعدلة للجامعة الإسلامية، متكيفاً مع التحولات التي طرأت على العالم الإسلامي منذ نهاية القرن التاسع عشر، وبرز هذا الاتجاه العروبي في الجزائر في شكله السياسي بعد ظهور تياران قويان سيطرا على الساحة

السياسية والفكرية في الجزائر: التيار الإصلاحي المجسَّد في جمعية العلماء المسلمين والتيار الاستقلالي المجسَّد في حزب الشعب الجزائري.

وكلاهما ساهم فيهما فصيل هام وكبير من خريجي الجامعة الزيتونية الذين مثَّلوا هذا الاتجاه الداعي إلى تحرير الجزائر في إطار يضمن اندماجها في العالم الإسلامي، وأصبح الاتجاهان (السياسي- الثقافي) يسيران على خطة واحدة بعد الحرب العالمية الثانية وإن اختلفت الوسيلة والطريقة فالخطة كانت قائمة على طلب الذاتية القومية الجزائرية ومقوماتها في الاندماج في العالم العربي، وأصبحت الجامعة العربية الغاية التي يتجه كل عمل فكري واجتماعي في الجزائر إلى تحقيقها.

وفي الوقت الذي كانت فيه جزائر القرن التاسع عشر ميلادي تحت التأثير الفرنسي، كانت بالتوازي تحت تأثير آخر ألا وهو التأثير الشرقي الذي نقلته ورعته صدور ودفاتر وذكريات .... أجيال من المرتحلين والزائرين والحجيج وطلاب العلم، والمهاجرين الذين أجبرتهم ظروف الاحتلال على مغادرة بلادهم ولكنهم لم ينسوها بل ظلوا على صلة بأرضهم وأهاليهم، كما أدت الصحف والجرائد والمجلات والكتب والإجازات والمراسلات ومختلف الأنشطة الثقافية والفكرية والأدبية المتبادلة بين نخب الضفتين (المشرقية والمغربية) دوراً آخر مهماً في الإبقاء على التأثير الشرقي ببعده الديني واللغوي والإيديولوجي، فرغم سياسات الإلحاق الإداري والقانوني والتشريعي، ورغم الغزو الاستيطاني والهيمنة الثقافية واللغوية...التي مارستها الإدارة الاستعمارية الفرنسية على الجزائر، إلا أن هذه الأخيرة لم تنقطع عن موروثها الشرقي وهويتها الدينية واللغوية.

لقد كانت يقظة الجزائر في هذه المرحلة التاريخية، قد سبقتها يقظة معظم الشعوب الشرقية الأخرى، فالمقاومات الشرسة للوطنيين الجزائريين بُعيد الاحتلال الفرنسي أو ما أصطلح على تسميته بالمقاومات الشعبية وما تلاها من مصادرة للأرض، ومسخ للهوية الوطنية، وتشريد ونفي وإفناء للعنصر المثقف والمتعلم، كل ذلك جعل بداية اليقظة عند النخب الجزائرية تبدو مبكرة جداً، لتزداد رسوخاً مع أواخر القرن التاسع عشر حين تصادفت مع يقظة شعوب أخرى.

وبحكم نسبي غير ملزم صحَّ أن نقول: أنه إذا كانت يقظة بعض الشعوب قد بدأت بالنشاط السياسي الثوري أو بالتحرك الاجتماعي المنتظم؛ فإن يقظة الجزائر قد انطلقت - برحلات علمائها وطلابها- إلى الخارج، ومنهم على الخصوص الطلاب المرتحلين إلى تونس، ذلك أنهم وبعد تحصيلهم لشتى العلوم والفنون آثروا العودة إلى الجزائر والأمل يحدوهم في تحقيق نهضة تعليمية وتربوية شاملة لكن بأهداف متباينة، وبانتماءات سياسية وإيديولوجية متشاكسة، جسّدت في تلك الفترة عمق الصدام الذي وقع بين مختلف أطياف النخب المثقفة الجزائرية حول النهج الفكري والحضاري الذي وجب على الحركة الوطنية

الجزائرية الفتية اتباعه آنذاك، سواءً في صراعها مع الإيديولوجية الاستعمارية، أو مع النخب الجزائرية ذات التوجه الاندماجي المتصالح مع الوجود الاستعماري في الجزائر بنوعيه (النخب المكتسبة للثقافة الفرنسية أو المرتمية في الثقافة الغنوسية السلبية).

فانقسمت إلى ثلاث تيارات، منها من سار في ركاب التوجه المتصالح مع الوجود الاستعماري في الجزائر بنوعيه: النخب المكتسبة للثقافة الفرنسية (الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري)، أو المرتمية في الثقافة الغنوسية السلبية(الطرق الصوفية الضالة)، ومنها من سار في ركاب نهج الإصلاح الديني (جمعية العلماء المسلمين المتصالحة مع الاتحاد الديمقراطي والمعادية للطرق الصوفية الضالة)، ومنها أيضاً من تبنى النهج السياسي بنوعيه (النضالي-الثوري). فالخلاف لم يكن أصلاً في الغاية التي هي:

- تحرير الأرض والإنسان والهوية الوطنية من التماهي الاستعماري الطارئ.

- تكوين وتحصين الجيل القادم من ترسبات أكثر من نصف قرن أو يزيد مسَّت مكامن الهوية والانتماء.

إنما الخلاف كان في الخطوة الأولى من المشروع الوطني، فانقسمت هذه النخب إلى تيارات ثلاث لتجسيد خطوتها الأولى:

- **تيار المداراة**: الذي اتبع خطة نشر الوعي السياسي والثقافي في تقية تامة مع محيطها الخاضع للهيمنة الاستعمارية.

- **تيار المجاراة**: الذي اتبع في خطوته الأولى أسلوب الانخراط في المحيط السياسي (تشكيل الأحزاب، والنضال الانتخابي)، والسياق الثقافي الفرنسي ومجاراته في دعوى التشريع الإصلاحي والتثقيفي وفق سياسة خذ ثم طالب.

- **تيار المعاداة**: الذي نهج في أسلوب خطواته الأولى سلوك الرفض المطلق للكينونة الاستعمارية الفرنسية للجزائر والدعوة صراحة إلى الحرية والقطيعة.

عموماً، فقد كان برنامج النخبة الزيتونية برنامجاً تعليمياً وتربوياً في آن واحد، فمن الوجهة التربوية والدينية أرادوا الرجوع بالإسلام إلى صفائه الأول والعودة إلى تبني المراجع التقليدية للمذهب المالكي، مما اضطرهم إلى مقاومة المعتقدات الباطلة ومظاهر السحر والشعوذة، ومن الوجهة التعليمية والثقافية فإنهم قد سعوا إلى لمّ شَتات المجموعة الإسلامية بالتقريب بين مختلف المذاهب الدينية، والتيارات الفكرية والفقهية بدون ميّز في الجنس أو الأصل قصد خلق كتلة واحدة من المسلمين الجزائريين[4]. وفي سبيل ذلك اهتموا أولاً بتصحيح التنشئة التربوية فبثّوا تعليماً مُهيئاً على الطريقة الشرقية(وأقصد هنا النظم

4- جوليان (ش،أ)، **أفريقيا الشمالية تسير**، تونس: الدار التونسية للنشر، 1976م، ص135.

الإدارية والتعليمية، وطريقة التدريس والتقييم ومنح الشهادة)؛ أي تقليدياً ومستوحى من مبادئ البيئة العربية في آن واحد، فأنشأوا حتى بالمداشر والدواوير مدارس حرّة لنشر مبادئ اللغة العربية والتربية الإسلامية، وكان هدفهم الأسمى هو إنشاء جامعة كبرى على غرار الجامعة الزيتونية كي تكون مركز إشعاع للثقافة العربية في الجزائر، ثم امتدت حركتهم التربوية والتعليمية إلى الأوساط العمالية والمهنية والترفيهية بفرنسا والجزائر حيث أسّسوا بها نوادي تربوية وأخرى تعليمية[5].

إذن لم يكن دور هؤلاء الطلبة ليقف عند حدود تحريض أترابهم على الالتحاق بالمعاهد العلمية بالخارج، ومساعدة من هم بحاجة إلى مساعدة من الطلبة المستجدين، وإنما كانوا يستغلون عُطلهم الصيفية لإلقاء الدروس العامة في المساجد والكتاتيب والبيوت الخاصة، وكثيراً ما كانوا يختارون عن طواعية الانتشار في الآفاق البعيدة خصوصاً بعد تخرّجهم لأداء رسالة الإصلاح والتربية على الوجه الأكمل.. حيث اندفع بعضهم أحياناً إلى تأسيس المدارس العربية والقرآنية الحرة متجشّمين أعباء التأسيس، ومكرّسين جهودهم لنشر العربية التي كان حظّها منقوصاً في المدارس الرسمية مفضّلين المغامرة وبذْل الجهود في المدارس الوطنية القرآنية بما توفّر لهم من الفرص والجهد.

وقد تمكّنت هذه النخبة العالمة بتياراتها الثلاث من إنشاء مدارس ومعاهد حرة للتعليم المكتبي للصغار، وتنظيم دروس في الوعظ والإرشاد الديني في المساجد، ومحاضرات في شؤون الحياة العامة في النوادي، وكان التعليم المكتبي يهتم بتدريب الطلاب على الخطابة والتبسّط في الحديث وتربية مَلكَة الذوق والاستنتاج، وفي العودة إلى العربية الفصحى ونفض التهيّب والترجّل في مخاطبة الجماهير وكان من نتائج ذلك استقامة الألسُن المتباينة، كما دخل في التعليم المكتبي أيضاً القرآن الكريم وعلومه وطبْع أمهات كتب الحديث الصحيحة والتفسير حتى يُرشّدوا الجماهير إلى جادّة الصواب، والقضاء على أمية الكبار والتشجيع على القراءة النافعة والبحث العلمي السديد حتى يُحافظ الجيل القادم على عربيته التي تشكّل وآدابها لسان الأمة الجزائرية كلها لأن نشر العربية عندهم معناه تسهيل الطريق لفهم القرآن الكريم.

وقد لاحظ الصحفي التونسي ابن محمود نور الدين الذي زار منطقة وادي سوف عام 1952م بأن أدواراً مميّزة للنخبة الزيتونية من خلال نشاطها الدؤوب في نشر الدين الصحيح واللغة العربية في أوساط ساكني وادي سوف قائلاً: «قام أحد متساكني «وادي سوف» من خريجي الزيتونة بتأسيس مدرسة لتعليم العربية وتحمّل تبعات ما يُكلّفه هذا المشروع من العمل المضني على إعطاء دروس بالعربية في المدارس النظامية، ولم يكن خريج الزيتونة هذا

5- جوليان (ش،أ)، **أفريقيا الشمالية تسير**، مرجع سابق، ص136.

إلا الشيخ الطاهر التليلي المحرز على العالمية من جامع الزيتونة.. ففي أكثر الأحيان كان الناس يُقبلون من تلقاء أنفسهم على العائدين من الدراسة في المؤسسات التونسية أثناء العطلة يرغَبون إعطائهم دروساً في اللغة العربية وشؤون الدين الإسلامي... ويقطعون لذلك المسافات الشاسعة بين القرى والمدن بدافع الرغبة الجامحة في التعلّم»[6].

ورغم الممارسات القمعية الفرنسية إلا أن خريجي المؤسسات التعليمية التونسية كانوا بعودتهم قد أوصلوا الحلقة المفقودة التي صنعها الاستعمار بين الجزائر والعالم العربي وذلك عن طريق التعليم في المساجد والمدارس الأهلية الحكومية، فكانوا من الروّاد الأوائل الذين وجّهوا كل طاقاتهم وجهودهم في بعث الثقافة العربية الإسلامية، التي كادت أن تندثر حين استولى الاستعمار الفرنسي على الأوقاف الإسلامية التي كانت تموّل معظم المراكز العربية الإسلامية، وبعثها على نطاق واسع بواسطة المراكز الثقافية والنوادي الحرّة التابعة لجمعية العلماء أو الأحزاب والجمعيات الأخرى، ولولا جهود هؤلاء الطلبة لَكُتب للفكر الإنساني الجزائري أن يكون له مصير آخر غير الذي تقرر، وبذلك نجح التعليم العربي الحرّ في المحافظة على الثقافة القومية للجزائر باعتبارها من مقومات الشخصية الجزائرية.

إذن فالإطار الحضاري الذي تحرك داخله الطلبة الجزائريون خريجي الجامع الأعظم بتونس واستمدوا منه مادّتهم الخام، هو إطار الحضارة العربية الإسلامية بمفهومها العام، ومن شرايين هذه الحضارة استقوا شخصيتهم الأدبية والفكرية، و«شعورهم القومي وروحهم الإسلامية اللذيْن يكوّنان عندهم الوتَر الحسّاس والعِرق النابضْ كما كان يُكونان عند المثقف الجزائري حينها إرثاً استطاع ليل الاستعمار الطويل أن يخفيه ويخنقه ويشلّه زمناً طويلاً ولكنه لم يستطع أن يقضي عليه أو يُتلفه»[7].

وإذا حاول الدارس أن يتتبع أدوار هذه النخبة الفكرية والسياسية بُغية استخلاص هذه النزعة عندهم فإنه لا يستطيع حصرها في موضوع معين من إنتاجهم، وبديهي أن هذه النزعة وليدة اتجاههم في الحركة الإصلاحية، ولعلّ النماذج التي سنذكرها لاحقاً تكفي دلالة في البرهنة على تجْلية هذه الحقيقة الفكرية، «لقد ظل اتجاههم الديني والوطني يطبع أعمالهم الفكرية والأدبية بطابع خاص، ويكون في كتاباتهم سلاحاً عنيداً في الدفاع عن مقاومتهم لحركات التبشير والتنصير التي أعطاها الاستعمار بوجوده دفْعاً قوياً من أجل تشويه الإسلام وتحريفه أمام الأجيال الجزائرية حتى لا تفقَد ثباتهَا وتضطرب مسيرتها فتتشبث بثوب المستعمر»[8].

6- الجابري (محمد الصالح)، **النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس**، تونس: الدار العربية للكتاب 1983م، ص43

7- شريط (عبد الله)، **الأدب العربي الحديث**"، **الأصالة**، ع13، الجزائر: 1973م، ص54.

8- عباس (محمد)، **البشير الإبراهيمي (أدبياً)**، الجزائر: د.م. ج، بلا، ت، ص16.

وفي مرحلة الثورة التحريرية شعر هؤلاء الطلبة بالمسؤولية الوطنية التي تتطلب منهم التضحية بعد الأخرى والنضال المستديم وقوة الإرادة والنشاط لمواجهة سياسة الاحتلال الفرنسي في وطنه، كما شعر أنه "مجند" موضوع في الاحتياط ينتظر من يوم إلى آخر التخلي عن الكتاب والكراس والقلم ليحمل البندقية ويلتحق بإخوانه في الجبال «وما يدل على استعداد الطلبة الجزائريين في كل وقت للتطوع في صفوف جبهة التحرير أنهم تطوعوا بأعداد وافرة وسجلوا أسماؤهم في قوائم طويلة عندما أشعرتهم الجبهة أنها تحتاج إلى بعضهم للعمل في الإدارة أو القضاء أو في السلك الطبي أو غيرها من الميادين الأخرى التي انبثقت عن التنظيم الثوري لمؤتمر الصومام التاريخي»[9]، وفي ذلك يقول الشيخ أحمد حماني: «.. كان من خريجي جامع الزيتونة منذ عودتهم إلى الجزائر في طليعة المجاهدين، وكان لهم ميدانهم في التربية والتكوين وفي المحافظة على القومية والأخلاق والدين ووحدة الصفوف متراصّة ومحاربة كل وسائل التخريب والفساد واليأس والقنوط وكلّ عوامل الهزيمة وخراب النفوس، كل ذلك من أعظم وسائل إعداد الشعب للجهاد والوصول إلى شاطئ السلامة»[10].

لقد اضطلعت الأنتلجانسيا الزيتونية بدور تاريخي، حيث كان لها مواقف علمية وفكرية مميزة خلال فترة الاستعمار المظلمة، وقد دلّ ذلك على وعيهم وتفطنهم لوجودهم الرسالي وهو حرصهم وتأكيدهم الدائم للحفاظ على مقومات هويتهم الحضارية. وقد عبروا عن ذلك عند إهداء مجلتهم الثمرة الأولى إلى الجزائر... التي لم ترى من الأبناء الذين يحسبون لحرمة الأمومة حسابها ويفقهون للكرامة معناها- إلا النادر القليل، «إلى الأم الحنون والوطن المفدى بالنفس والنفيس: الجزائر العزيزة الناهضة نهدي كعنوان على الطاعة والولاء والتضحية والجهاد في سبيل مرضاتها وهنائها؛ هاته القطرات المنعشة علها تُثلج صدرها المحترق، وتخفّف نوعاً ما من كمد كبدها الجريء الملتهب، فتبتسم للمستقبل الزاهر، وتنشرح نفسها للأمل السعيد..»[11].

يعتقد الأستاذ "عدي الهواري" في كتابه "مأزق الشعبوية" بأن: «العلماء احتلوا بنضالهم

9- هلال (عمار)، **نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954م**، الجزائر: دار هومة، 2004م، ص82. للتوسع أكثر في قوائم شهداء الثورة من الزيتونيين راجع: - فضلاء (محمد الحسن)، **المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر**، ج1، ج2، ج3، الجزائر: دار الأمة، 1999م.- جوهر (حسن محمد)، مرسي (محمد أبو الليل)، **الجزائر**: مصر، دار المعارف، 1965م، ص55 وما بعدها- تركي (رابح)، "الصراع بين (ج. ع. م .ج) وإدارة الاحتلال الفرنسي في الجزائر"، **الثقافة**، ع85، الجزائر: جانفي/ فيفري 1985م، ص. ص(183- 202)- الخطيب (أحمد)، **الثورة الجزائرية (دراسة وتاريخ)**، بيروت دار العلم للملايين،1958م، ص122- جلال (يحي)، **السياسة الفرنسية في الجزائر**،، مصر: دار المعرفة، 1959م، ص279

10- حماني (أحمد)، **شهداء علماء معهد بن باديس**، الجزائر: قصر الكتاب، 2004م، ص5.

11- **الثمرة الأولى** (إصدار ج.ط.ز.ج)، تونس: مطبعة الشباب، 1937م، ص25.

مكانة خاصة ضمن الوطنية الجزائرية، فقد ساهموا في تكوينهم بشكل حاسم، بالرغم من غموض مواقفهم فيما يتعلق بمسألة الاستقلال»، ويضيف عدى الهواري: «أن المجهودات التي بذلها العلماء لبعث المجتمع الجزائري بدأت بالوقوف ضد الطرقية وفرض اللغة العربية وإبراز الماضي التاريخي للجزائر، وذلك ما يجعلهم بمثابة المؤسسين الأوائل للوطنية الجزائرية، فإذا كان مصالي الحاج يريد بعث الدولة الجزائرية، فإن ابن باديس كان يفكر في بعث الأمة الجزائرية، وكلاهما يكمل الآخر»[12].

ومن الإنصاف فإنه لا يجوز اعتبار تاريخ رجالات هذه الفئة النيرة مجرد تاريخ لأنصار الحركة الإسلامية المتزمتة أو لأتباع التيار القومي العربي؛ إنما هو تاريخ وطني إصلاحي كان طوال فترة الكفاح الوطني بمثابة الحصن الحصين بالنسبة إلى المقاومة الوطنية السياسية والثقافية على وجه الخصوص تجاه حركة تسرب القيم الاستعمارية وتأثيراتها في البلاد والعباد، ومن ناحية أخرى فقد كانت تلك المدارس والمعاهد التي أسسوها بمثابة قلعة وطنية جسَّدت المنبر الدائم الذي تتنافس في ظله الأفكار المتناقضة ولكنها كانت أيضاً مثرية وبنَّاءة إلى أبعد حد. هذا وإن دراسة تاريخ النضال الطلابي الجزائري بمعزل عن أي اعتبار متميز وبمنأى عن أي خطاب تبريري من شأنها أن تساعدنا بدون شك على حسن إدراك الحركية الاجتماعية والتحولات الذهنية التي صنعت حركة التحرير الوطني، وهذا من شأنه أيضاً أن يسمح لنا بالعثور على عناصر الإجابة اللازمة لإدراك بعض التساؤلات المتعلقة بحاضرنا.

وفي الجملة فإن المعركة التي كانت دائرة بين القديم والجديد وبين السنة والبدعة وبين المستقل والمندمج ... والتي كانت الجزائر مسرحاً لها، قد ساعدت على بروز نخبة تتميز بنقمتها وثورتها على البرنامج التكويني المتحجر من جهة وعلى أشكال ابتذال الهوية من جهة أخرى، وقد كان هذا الاغتراب الذي يتسم به الزيتونيون الجزائريون داخل بلادهم سبباً مباشراً من أسباب إحساسهم "بالدون"، تجاه العناصر المتخرجة من المعاهد والجامعات الفرنسية مثلاً وشعوراً منهم بهذا النقص فقد أقبلوا وهم في تونس زرافاتً ووحداناً على الصادقية والخلدونية، وفي الجزائر على المدارس الحرّة التي تلقن العلوم العصرية واللغة الفرنسية والتي كان قد أنشأها الرعيل الأول من الزيتونيين لتمكينهم من الحصول على ثقافة عصرية كانوا يقدرونها حق قدرها في أغلب الأحيان.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المبحث هذه الملاحظة البليغة التي أبداها "غاستون فلتران" (Gaston Feltran) في الفصل المنشور بجريدة الديبيش كولونيال(Depeche

12 - Lahouari addi , **l'impasse de populisme** , édition E.n.a.l, Algérie, 1990 , p711.

للتوسع يراجع: - علي الكنز، **حول الأزمة، دراسات حول الجزائر والعالم العربي**، الجزائر، دار لوشان للنشر، 1990، ص09.

Colonial Journal) بتاريخ 11 ماي 1910م عقب مظاهرات واعتصامات الطلبة الزيتونيين: «تمثل مظاهرة الطلبة أثراً طبيعياً ومنطقياً من آثار قضية بسيطة وملموسة بالنسبة إلى الجميع أعني هجوم الأفكار الجديدة على معاقل الأفكار القديمة»[13]، وكما دلّت على ذلك التجربة دوماً فإن التاريخ يصلح لتفسير الحاضر بل أنه يمثل البحث عن المستقبل من خلال الذاكرة الجماعية ويمثل –على حد تعبير- "جاك بيرك"(Jack Burke) «الانعكاس الجدلي والمتبادل للعنصرين المذكورين»، ولا يمكن أن نكون أكثر تبصراً من "فلتران"، إلا أننا بفضل البعد التاريخي الممتد على نصف قرن قد بدأنا نتصور إشكالية تاريخنا الثقافي عامة وتاريخ النضال الطلابي خاصة حسب رؤية نقدية مفندة للنظريات التبسيطية الكفيلة ويا للأسف بالإساءة إلى تاريخ هذه الفئة الجليلة التي ظلت طوال عدة سنوات محافظة على هويتنا القومية، بالإضافة إلى ذلك، أليس من المفارقات الكبرى أن يظل الطالب الباديسي أو الزيتوني لحد الآن الجندي المجهول بالنسبة إلى تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية لاسيما ونحن نعلم أن كبار أعلام تاريخنا الثقافي هم في معظمهم من هذه الفئة خريجي جامع الزيتونة أو المدارس الباديسية؟

3. النخبة الزيتونية أصيلي الجنوب الشرقي وصراع الأفكار في المرحلة الاستعمارية

لقد كان للنخبة الزيتونية (علماء الجزائر) أصيلي الجنوب الشرقي دوراً مهماً في التمسّك بالقومية الجزائرية والتعاليم الإسلامية، فقد بذلوا جهوداً موفّقة في سبيل التقريب بين العرب والبربر، وإيجاد كتلة إسلامية متحدة، كما عملوا على نشر العلوم الدينية وتقوية الروح الوطنية بين المواطنين، وتطهير النفوس من السموم الفرنسية.[14]

وتحت شعار الوعظ والإرشاد ونشر التهذيب والتعليم الديني بين أبناء وبنات الجزائر وتأسيس النوادي الثقافية للعناية بالشباب وتربيتهم تربية اجتماعية ودينية، كانت النخبة الزيتونية في هذا الإقليم تخوض في الأمور السياسية في كل ما يتصل بمستقبل الوطن ومقوّمات الشخصية الجزائرية، وقد عملت على توجيه الشعب الجزائري توجيهاً غربياً وإسلامياً ووطنياً يخالف تمام المخالفة سياسة الاحتلال الرامية إلى:

- تشجيع الطرق الصوفية الضّالة التي تعمل على نشر الشعْوذة وإخماد العقل.
- فرنَسة الجزائر فرنَسة كاملة في اللغة والثقافة والفكر والاتجاه.
- فرض التجنيس على الجزائريين بقصد سلخهم من شخصيتهم الوطنية العربية الإسلامية وإدماجهم في الكيان الفرنسي العام وبالتالي تصبح الجزائر جزءاً مكمّلاً لفرنسا.

---

13 - العياشي (مختار)، **الزيتونة والزيتونيون في تاريخ تونس المعاصر**، تونس: مركز النشر الجامعي، 2003م، ص16.

14- جوهر (حسن محمد)، مرسي (محمد أبو الليل)، **الجزائر**: مصر، دار المعارف، 1965م، ص55.

• العمل على نشر المسيحية والقضاء على مقومات الدين الإسلامي.[15]

وفي ذلك يقول أحمد الخطيب: « كادت سياسة البدع والأراجيف تؤثر على الشعب الجزائري لولا أن قيّض الله لهذا الشعب بعض العلماء المخلصين الذين التفوا حول الشيخ عبد الحميد بن باديس وأخذوا يدافعون عن مبادئ دينهم وصَفاء لغتهم، فلم يهِنوا ولم يضعُفوا على الرغم من اضطهاد الاستعمار لهم وتكالُب الرجعية حولهم»[16] وقد تولى هؤلاء العلماء في هذا الاتجاهين أمرين هما:

◄**تطهير الدين الإسلامي مما ألحَق به الاستعمار من خرافات وبدع** وإبقاء شُعلته الوضّاءة التي بذل الاستعمار لإخمادها كل شيء، ولم يتورّع على اقتراف أفظع الجرائم من أجل إطفاء هذا النور الإلهي كما عقدت العزم «في نطاق تطهير الدين» على المطالبة بسلخ الدين الإسلامي عن الدولة وبالأحرى تنفيذ ما جاء في مرسوم 1907/09/27م، ونشأ صراع بين هذه الثلّة من العلماء المتنوّرين والاستعمار الفرنسي ومبشريه وبعض الزوايا والطرقيّين من جهة أخرى.

◄**العمل على التقريب بين العرب والبربر وبين الطوائف المذهبية والإيديولوجية المتباينة** لخلق كتلة وطنية واحدة، كما «عملوا على إلقاء المحاضرات وفتح المدارس ونشر الكتب التي تتحدث عن تاريخ بلادهم وتعمل على تمجيده، وحاولوا بذلك أن يخلقوا جيلاً جديداً مثقفاً بثقافة عصرية عن طريق اللغة العربية، ووصل نفوذهم إلى العمال الجزائريين في فرنسا حيث أخذوا في إرشادهم وتثقيفهم وغرس روح القومية العربية الإسلامية في نفوسهم»[17]، وبالتالي أكّد العلماء أن هناك قومية جزائرية وأن صفتها الإسلام والعروبة، فعاد كثيرٌ من الجزائريين إلى التمسك بصلواتهم وقاطعوا الخمور ومختلف الظواهر والآفات الاجتماعية، كما أفتى هؤلاء العلماء بأن التخلي عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامي للحصول على صفة المواطن الفرنسي يعني الارتداد عن الإسلام مما يحرمه من الصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين، وكانت هذه لطمة واضحة أصابت النظُم الفرنسية الاستعمارية في الجزائر وساعدت على التمييز بين الصفات الجزائرية والصفات الفرنسية وبالتالي على نُضج الشخصية الجزائرية ونموّها وتطوّرها، وكانت جمعية العلماء المسلمين وهي التي تمثّل قوة الوسط بين قوى الجزائر أكبر الهيئات التي عمل من خلالها أفراد النخبة الزيتونية حيث تركوا من خلالها آثاراً واضحة دون أن يُغيّروا من اتجاههم العام.

15- للتوسع راجع: تركي (رابح)، "الصراع بين جمعية العلماء وإدارة الاحتلال"، **الثقافة**، ع85، مرجع سابق، ص. ص(183- 202).

16- الخطيب (أحمد)، **الثورة الجزائرية**، مرجع سابق، ص122.

17- جلال (يحي)، **السياسة الفرنسية**، مرجع سابق، ص279.

فالطلبة الزيتونيون أصيلي الجنوب الشرقي الجزائري بعد عودتهم النهائية للوطن ومسقط الرأس، منهم من امتهن مهنة التدريس ضمن التعليم الحر في المدارس التابعة لجمعية العلماء أو لحزب الشعب، أو ضمن الكتاتيب والزوايا والمعاهد العصرية المتناثرة في الجنوب الشرقي الجزائري على غرار ما هو قائم في وادي سوف وتبسة وبسكرة ومنطقة وادي ميزاب، ومنهم من التحق بالعمل السياسي الوطني ضمن أنشطة النجم أو حزب الشعب فيما بعد، ومن ثم شارك في العمل الثوري بجيش التحرير الوطني، ومنهم من غادر الوطن لاجئاً في مهمة وطنية للجبهة أو للجمعية قبل حلّها، ومنهم من غادر الوطن تربوياً وتعليمياً في خلايا جبهة التحرير الوطني كمجنّد في ميادين التوعية السياسية والإعلام الثوري، كما أن منهم من تولى القضاء الثوري في الجهات التي تحددها قيادة الثورة سواء بالداخل أو بالخارج على الحدود الشرقية أو الغربية وهم في ذلك كلّه معرّضون للتضحيات الجسام (سجن، اعتقال، نفي، استشهاد، إقامة جبرية...» ومنهم من حفظه الله وسلِم من كل ذلك.

1.3. الأدوار التربوية ذات البعد العقيدي السليم:

حيث اهتموا أولاً وبالذات بالناحية التربوية فبثّوا تعليماً مهيئاً على الطريقة الشرقية تقليدياً ومستوحى من مبادئ الوحدة العربية في آن واحد، وبفضل إرادتهم وقوّة عقيدتهم واجه العلماء المتخرجون من الزيتونة التصوّف الشاذ والمرابطة الرّاكدة، وناصروا غايات التجديد، فأنشأوا حتى بالمداشر والدواوير مدارس حرّة لنشر مبادئ اللغة العربية والتربية الإسلامية، فأدوار النخبة الزيتونية التربوية والتعليمية كان الهدف منها هو:

- المحافظة على الدين الإسلامي.
- المحافظة على اللغة العربية.
- المحافظة على تاريخ وجغرافية الجزائر.

وعليه «يعود الفضل في المحافظة على الشخصية الجزائرية في المقام الأول إلى النهج التعليمي الذي حملت لوائَه هذه الثلّة من العلماء المصلحين، حيث نجحت في المحافظة على الشخصية الجزائرية بمقوماتها التي تمثّلت في الثقافة العربية الإسلامية واللغة العربية والدين الإسلامي والتاريخ العربي الإسلامي»[18]. وبعودتهم أوصلوا الحلقة المفقودة التي صنعها الاستعمار بين الجزائر والعالم العربي وذلك عن طريق التعليم في المساجد والمدارس الأهلية الحكومية، فكانوا من الروّاد الأوائل الذين وجّهوا كل طاقاتهم وجهودهم في بعث الثقافة العربية الإسلامية، التي كادت أن تندثر «حين استولى الاستعمار الفرنسي على الأوقاف الإسلامية التي كانت تموّل معظم المراكز العربية الإسلامية وبعثها على نطاق واسع بواسطة

18- بلاسي (نبيل أحمد)، **الاتجاه العربي الإسلامي ودوره في تحرير الجزائر**، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، ص40.

المراكز الثقافية والمدارس الحرّة التابعة لجمعية العلماء أو الأحزاب والجمعيات الأخرى»[19]. وهذه السمة كانت ظاهرة في أنشطة وإسهامات الطلبة الزيتونيون الجزائريون الأدبية والفكرية والسياسية، ولاسيما ما ظهر منها قبل الثورة، لأن ظاهرة التمسّك بالدين وبالعروبة، أخذت في هذه المرحلة ارتباطها الوثيق بفكرة الجهاد والاستشهاد في سبيل جزائر عربية إسلامية.

2.3. الأدوار السياسية والنضالية ذات البعد الوطني:

شعر الطالب الزيتوني منذ اندلاع الثورة التحريرية وهو في رحاب جامع الزيتونة بالمسؤولية الوطنية التي تتطلب منه التضحية بعد الأخرى والنضال المستديم وقوة الإرادة والنشاط لمواجهة سياسة الاحتلال الفرنسي في وطنه، كما شعر الطالب الجزائري في تونس في هذه الظروف أنه "مجند" موضوع في الاحتياط ينتظر من يوم إلى آخر التخلي عن الكتاب والكراس والقلم ليحمل البندقية ويلتحق بإخوانه في الجبال. ولو فتحت الجبهة الباب على مصراعيه لانخرط الطلاب فيها لما بقي طالب واحد في الجامع الأعظم أو غيره من الجامعات التي كانوا يدرسون بها لكن ذلك لم يحدث لعلم الجبهة وإدراكها لمنافع العلم والمعرفة، وما سيترتب عن ذلك من فوائد جمَّة لعل أهمها تكوين إطارات جزائرية كفأه تستطيع تحمل عبث المسؤوليات الجسام في مرحلة ما بعد الثورة، وعلى الرغم من ذلك وبمبادرة شخصية منهم تخلى بعض الطلاب عن دراستهم والتحقوا بوسائلهم الخاصة بصفوف جبهة التحرير الوطني أو عن طريق عبد الكريم الخطابي الذي تولى التدريب العسكري لكثير من الطلاب الجزائريين قبل التحاقهم لتأدية واجبهم الوطني، وتطوَّع الطلاب الزيتونيون عسكرياً في الثورة يعود تاريخه إلى الشهور الأولى لاندلاع الثورة التحريرية.

ويدّعي أحد الكتّاب الفرنسيين أن القائد عميروش قد صرّح لضابط عسكري فرنسي، كان الثوار الجزائريين قد ألقوا عليه القبض إثر معركة من المعارك الضارية التي خاضوها ضد عساكر الاحتلال بما يلي: «إذا فقدنا الحياة فليس لذلك من أهمية على الإطلاق لأن قوتنا الحقيقية تكمن في شبابنا المثقف وفي النخبة الشابة التي تتعلم حالياً في خارج البلاد ومن أجل هؤلاء فقط أشعلنا ضد فرنسا نار الحرب..»[20]، وإذا تبيّن فعلا أن هذا القول للقائد عميروش نفسه، فإننا نجد فيه أكثر من دلالة وإشارة إلى الاهتمام الكبير الذي أعطته الثورة لشبابها المثقف.

وقد جاء في الكلمة التي ألقاها فرحات عباس بمناسبة انعقاد المؤتمر الرابع للاتحاد العام للطلبة الجزائريين في نهاية شهر جويلية وبداية شهر أوت سنة 1960م في تونس ما يلي:

19- شريط (عبد الله)، **الأدب العربي الحديث**"، **الأصالة**، ع13، الجزائر: 1973م، ص54.

20- شريط (عبد الله)، **الأدب العربي الحديث**، **مرجع سابق**، ص54

«... كوّنت الثورة الجزائريين من بينكم (يقصد الطلبة الحاضرين) أعداداً من التقنيين في ظرف ستة سنوات فاق الكثير تلك الأعداد التي كوّنها الاستعمار الفرنسي خلال (130 سنة) مرّت على احتلاله للوطن...». يقول الشيخ أحمد حماني «.. لقد كان في جملة الذين استجابوا لصرخة الجهاد علماء الجزائر وطلابها في الداخل والخارج، حيث أذاع راديو القاهرة مساء يوم 1954/11/15م نداءً موجهاً من رئيس جمعية العلماء إلى الشعب الجزائري يبصّرهم بعدوّهم ويذكّرهم بأعماله ونواياه وبتاريخه ويناشدهم أن يتابعوا الجهاد.... وقد كان من خريجي جامع الزيتونة منذ عودتهم إلى الجزائر في طليعة المجاهدين، وكان لهم ميدانهم في التربية والتكوين وفي المحافظة على القومية والأخلاق والدين ووحدة الصفوف متراصّة ومحاربة كل وسائل التخريب والفساد واليأس والقنوط وكلّ عوامل الهزيمة وخراب النفوس، كل ذلك من أعظم وسائل إعداد الشعب للجهاد والوصول إلى شاطئ السلامة»[21]، ويوم قامت أخذ خريجوا الجامع الأعظم يتسللون من صفوف الدراسة إلى صفوف القتال وبعد سنتين لم يبق منهم إلا القليل، ومنهم من قضى نحبه ومنهم من بلغ في القيادة أعلى المراتب، وفي هؤلاء الأساتذة من خاض الكفاح وخرّ في الميدان شهيداً ومنهم من انتظر وبلغ القمة في بناء دولته، وفيهم من أكلته المنافي والسّجون ومن اصطادتهم رصاصات الظلم.

ومن بين هؤلاء الطلبة الشهداء والذين أذكرُهم هنا إنما هم قطرة من يم وطائفة من عرموم فمنهم من اعتقلوا وعذّبوا أشنع تعذيب ثم أعدموا في أماكن معروفة أو مجهولة، ومنهم من سقطوا في معارك الكرامة والجهاد وهم يحاربون في الجبال والهضاب والتلال[22]، من أمثال:

• **من تبسة** (بدري عبد الحفيظ، وبودبوز يوسف بن صالح، وبورناني سليمان بن عمارة بن أحمد، والشهيد التبسي العربي بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات، وحراث بن جدو بن الأخضر، وحمدادو محمد الهادي(الذي كان ضمن طاقم سفينة أتوس التي أوقفتها السلطات الفرنسية وهي تقترب من السواحل المغربية محملة بالأسلحة في أكتوبر 1956م، حيث قبض عليه وظل معتقلاً ولم يطلق سراحه إلا بعد وقف إطلاق النار)، وحواس الطاهر وحواس المدني (العضوين البارزين في جمعية البعثة الجزائرية الزيتونية)، وخالدي الطاهر بن العربي، وخالدي محمد أمين، وخذيري عبد السلام بن عبد الله، وخليف الحسين بن دحمان، وروابحية إبراهيم بن الهامل بن أحمد، وروابحية محمد حامد(عضو البعثة الخارجية للثورة، وأحد أنشط الصحفيين في جزائر الثورة)، وزروال محمد بن

21- حماني (أحمد)، **شهداء علماء معهد بن باديس**، الجزائر: قصر الكتاب، 2004م، ص5.

22- للتوسع أكثر في قوائم شهداء الثورة من الزيتونيين راجع: -محمد الحسن فضلاء، **المسيرة الرائدة للتعليم العربي**، ج1، ج2 ج3، ج4. مرجع سابق.

عثمان (إطار في جيش التحرير، وواحد من أبرز من أرَّخ للثورة الجزائرية خصوصاً في المنطقة الشرقية)، والساسي علي(الذي أعتقل مع الشيخ العربي التبسي)، سعدي الصديق بن الطاهر(الصحفي المرموق)، وسعدي الطاهر بن إبراهيم حراث(الذي كان منسقاً عامًا لجميع الوزارات داخل تنظيم الحكومة الجزائرية المؤقتة منذ 1960م إلى سنة 1962م)، والدكتور سعدي عثمان (الذي كان أميناً دائماً للمكتب العسكري للثورة بالقاهرة)، وسلطاني عيسى، والشبوكي محمد بن عبد الله بن عمار (صاحب رائعة جزائرنا يا بلاد الجدود، نهضنا نحطم عنك القيود)، وعلية معمر(الذي أعتقل مع الشيخ العربي التبسي، وكان يُعد حتى وفاته عام 1975م العلبة السوداء لجمعية العلماء المسلمين)، وفارس الحبيب الذي كان مكلفاً بمهمة ممون للثورة التحريرية في بدايتها بالمنطقة، وتجنيد الشباب، وقواسمية محمد الطيب، وكلاع محمد الطاهر الذي كان متخصصاً في في التدريب العسكري، شارك في الحرب العربية الإسرائيلية سنتي 1967م و1973م.من مؤلفاته: صرخة من أعماق مجاهد(شعر)، ومحفوظي محمد المناضل السياسي الشرس في حزب الشعب الجزائري والمظلوم تاريخياً، ومزهودي إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم الذي كان من مساعدي زيغود يوسف وحضر معه مؤتمر الصومام يوم 20 أوت 1956م ضمن وفد الولاية الثانية، وقد تقلد عدة مسؤوليات في الثورة التحريرية وصار برتبة رائد في جيش التحرير الوطني، ثم صار عضوا في مجلس الثورة منذ مؤتمر الصومام، حيث كلفه المرحوم زيغود يوسف بتبليغ قرارات مؤتمر الصومام إلى الولاية الأولى، والعمل على إصلاح أوضاعها القيادية بعد استشهاد المرحوم مصطفى بن بوالعيد شهر مارس 1956م، ثم كلفه بمواصلة مساعيه نحو الثوار بتونس، حيث أشرف هناك على القسم العربي من صحف الثورة [المقاومة، المجاهد]. وعند تأسيس الحكومة الجزائرية المؤقتة سنة 1959م التحق بديوان الرئيس فرحات عباس، ومسعود بن عمر بن عبد السلام، ومطروح العيد بن أحمد بن سالم الذي كان من المعتقلين مع الشيخ العربي التبسي ونجا بأعجوبة من التصفية، وهوام علي الذي كان من المحكوم عليهم بالإعدام وقت الثورة وتمكن من الفرار باتجاه الحدود التونسية، وظل يعمل مع الثورة كمحافظ سياسي لجبهة التحرير بتونس إلى غاية الاستقلال، وغيرهم كثير).

• من وادي سوف: (إبراهيم بن سليمان بن ميدقية، والأزهاري بن عمر بن محمد أحد أهم الناشطين في جمعية الطلبة الزيتونيين الجزائريين بتونس، وابن الأطرش العيد بن الطاهر بن بلقاسم العضو النشيط في جمعية الشباب السوفي الزيتوني، والأغواطي أبو بكر حاج عيسى الذي أُلقي القبض عليه أثناء الثورة التَّحريرية مع الشيخين: أحمد شطة، والحسين زاهية يوم **15** أوت **1958**م، حيث لقوا جميعا أنواعًا من التعذيب والإهانة، ومنهم من أُعْدِمَ كالشيخ أحمد شطة(رحمه الله)، وباوية محمد الصالح بن مسعود أصيل بلدة

المغيّر، والذي نجهل مصيره إلى حد الآن منذ اختفائه القسري سنوات العنف الدموي التي عرفتها الجزائر في تسعينيات القرن الماضي، هذا الشاعر الفحل وطبيب العظام المتميز كان من الطلبة الناشطين في إطار فرع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بسوريا، وبكوشة حمزة بن البشير (شنوف) الصحفيُّ اللامعُ، والناقدُّ الخبيرُ، صاحب جريدة المغرب، ورائعة (ما رأيت وما رويت)، الذي اعتقل سنة 1957م، والشهيد بوحنية أحمد بن محمد بن علي أصيل بوغلانة كان واحداً من أبطال معركة السخونة الشهيرة، وبوزقاق عثمان بن الأخضر الذي كان أحد أعضاء اللجان المدنية التابعة لجبهة التحرير والمكونة من السادة: مصرلي قانة، الشيخ عبد المجيد حبة، الشيخ لزهاري ثابت، محمد بالصحراوي (حمة ساسي)، الحاج عبد القادر زغيدي، قرميط عبد القادر، العيد بالرمضان، سي عبد الله بن عمر قسوم، سي الطيب بوزقاق الدراجي بدرة، ومحمد حبة...الخ، وبوصبيع عمار بن العايش بن صالح الذي تولى خطة رئيس بجمعية الشباب السوفي بتونس سنة 1949م، وتُرعة جمال الدين بن الصادق بن أحمد القماري من الطلبة الناشطين في إطار جمعية البعثة الجزائرية الزيتونية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتونس، والتليلي محمد الطاهر بن بلقاسم بن الأخضر بن عمر بن أحمد القماري الذي اعتنى المرحوم أبو القاسم سعد الله بجل مؤلفاته، لكن بعض كتبه ما زالت في حدود علمي مخطوطة مثل قواعد البيان في الثابت والمحذوف في القرآن، على رواية ورش)، و(زهرات لغوية من كتاب الألفاظ الكتابية للهمذاني) و(مجموع الأمثال العامية) و(معجم الكلمات العامية الدارجة في الصحراء الجزائرية) و(شواهد الكلمات العامية من اللغة العربية الفصحى) وسماه أيضا بالقول الفصل في ردّ العامي إلى الأصل"، وهو مخطوط بلغت صفحاته أكثر من مئة صفحة، و(تلخيص كتاب الأضداد للمتوزي وهو مخطوط نظم متن الاستعارات للسمرقندي. الدرر الملكية في الدراري الفلكية. حديث المسامر في صروف بن عامر، لخص فيه كتاب الصروف لإبراهيم بن عامر، و(تاريخ منطقة وادي سوف)، وهو مخطوط، و(الكشكول)، ضم فيه تراجم لعلماء من الجزائر وتونس (مخطوط). و(تراجم علماء قمار)....و ثابت الأزهاري بن الأخضر الذي كان أحد أعضاء اللجان المدنية التابعة لجبهة التحرير بمنطقة وادي سوف، والشهيد جعفري يوسف بن بلقاسم أصيل جامعة الذي كان من السباقين في الانخراط في صفوف الثورة رفقة أخيه المجاهد عبد القادر الذي كان يعتمد عليه كثيراً في تحمل وتقاسم أعباء الثورة، بالإضافة إلى مجموعة من رفاق دربه كبسرة محمد، ومرشد محمد العيد، وسلطاني صالح، وبن علي العيد، والشهيد بنونة الدراجي..... فقد كان عضواً قياديًا بارزاً في اللجنة الأولى لقيادة العمل بمنطقة جامعة في نهاية عام 1954م، ثم رقي إلى مسؤول في اللجنة العامة إلى غاية استشهاده في أكتوبر 1957م، وحمادي الحسين بن علي بن حمادي بن العزال، وفيلسوف الثورة التحريرية حمانة البخاري بن حمانة الشافعي بن محمود، وحماني بلقاسم بن أحمد الحناشي السوفي، وخليفة الجنيدي بن عمار المؤسس لفرع

الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بتونس، وخيران علي بن سعد، وقاضي الثورة دربال محي الدين بن عبد الحفيظ، أصيل بلدة الرباح، ورزاق لبزة العلمي بن الطيب بن محمد الصغير الذي يشهد له التاريخ بنشاطه المبهر الذي قدمه للقضية الوطنية الجزائرية من خلال العمل الكشفي في تونس وفي غيرها، وصديقه في الكشفية الشهيد سعيد عبد الحي بن الطاهر، والشريف محمد الطيب بن الشيخ الأمين بن الشيخ الإمام من مواليد بلدة الرباح الأمين العام لجمعية الطلبة الجزائريين بتونس عام 1955م، وكان من المنخرطين الأوائل لجبهة التحرير حيث كلف بمهام التعليم والتوجيه، وقد كان معه حينها شكيري علي بن عمر بن أبي بكر القماري الذي تولى حينها خطة مراقب عام للجمعية الطلابية ....وغيرهم كثير.

ولما كان خريجي الزيتونة هم روّاد الفكرة العربية الإسلامية في الجزائر في العصر الحديث، ولما كانت جبهة التحرير الوطني قد اعتنقت هذه الفكرة وجعلتها الأساس في الثورة، فإنهم قبِلوا العلماء كأعضاء في الجبهة، وقد وضع هؤلاء العلماء أنفسَهم تحت تصرّف الجبهة لحظة اندلاع الثورة، وذلك في اجتماعهم الذي دعا إليه توفيق المدني في قسنطينة لتأييد الثورة.. وقد أخبرهم المدني أن دورُهم القديم كدعاة ينشرون الفكرة العربية الإسلامية قد انقضى وأن واجبهم هو وضْع أنفسهم تحت تصرّف الجبهة وقد حظيت فكرة المدني هذه بتأييد جميع الأصوات.[23]

كما أدى الشيخ الزيتوني إبراهيم مزهودي دوراً هاماً في اتصال العلماء بجيش التحرير الوطني الجزائري، وقد وصل في مشاركته في الثورة إلى حد توليه منصب القائد المساعد للولاية الثانية، ولما كان الزيتونيون بالأخص روّاد الفكرة العربية الإسلامية في الجزائر التي اعتنقتها الجبهة لذا كلّفتهم الجبهة بالعديد من المهام، فقد أرسلت توفيق المدني إلى المشرق العربي مع اتخاذ مصر قاعدة للعمل، كما كلّفت الزيتونيان محمد الغسيري وعبد الحميد مهري بالعمل التوعَوي في دمشق.

وإذا كانت سنة 1956م تمثّل تاريخًا فاصلاً في انضمام الطلبة الدارسين في المدارس الفرنسية للثورة فإن إخوانهم الذين كانوا يدرسون في المدارس الحرّة ومعاهد المغرب وتونس والمشرق العربي قد انضموا للثورة منذ اندلاعها، ويمكن مراجعة بعض أسماء الشهداء الأوائل كما يمكن مراجعة بعض أسماء قادة الثورة الأوّلين أيضًا فسنجدهم ممن درسوا في معهد ابن باديس أو في المعهد الكتاني أو ممن درسوا في المدارس الوطنية الأخرى، أو ممن ترك مقاعد الدراسة في الزيتونة والقرويين ومعاهد الشرق[24]... راجعوا أسماء من دخل الجزائر على ظهر الباخرة (دينا) سنة 1955م أو على ظهر الباخرة (لاتوس) سنة 1956م

23- بن نعمان (أحمد)، **مولود قاسم نايت بلقاسم**، ط2، الجزائر: دار الأمة، 1997م، ص20.

24- سعد الله (أبو القاسم)، **خارج السراب**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2005م، ص86.

وكلتاهما كانت محمّلة بالسلاح للثورة، وهناك غير هاتين الباخرتين وابحثوا عمّن كان يشرف على تهريب السلاح إلى الجزائر عبر ليبيا وتونس، لقد كان ذلك كله قبل 19 ماي 1956م.

وبالإضافة إلى ذلك كان الطلبة الجزائريون أصيلي الجنوب الشرقي في المشرق العربي على صلة وطيدة وتنسيق تام مع وفد جبهة التحرير الوطني بالخارج، وقد استشهد العديد منهم بعد دخولهم الجزائر وتقلّدهم السلاح في السنتين الأوليين للثورة وقبل (19 ماي) وفي وقت لاحق أسّس أولئك الطلبة مع إخوانهم الطلاب من مختلف مناطق الوطن رابطة باسمهم هي (رابطة الطلبة الجزائريين في المشرق العربي)، ضمّت فروعهم في القاهرة وسورية والعراق والكويت... وكانت تعمل بالتنسيق مع جبهة التحرير الوطني، ولكن المصلحة الوطنية اقتضت توحيد الصفوف الطلابية في منظمة واحدة هي (الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين) بإشراف الجبهة[25]، ومن ذلك يتّضح أن دراسة الحركة الطلابية الجزائرية يجب ألا تبسّط إلى الحد الذي يجعل من 19 ماي 1956م هو الخط الفاصل بين عهدين بالنظر إلى انضمام الطلبة للثورة، فإذا كان ذلك صحيحاً بالنسبة لبعض الطلبة فإنه ليس صحيحاً بالنسبة لجميعهم.

ويروي الأستاذ يحي بوعزيز عن دوره في إضراب الطلبة الشهير يوم 19 ماي 1956م في أوساط الطلبة الجزائريين بجامع الزيتونة... ويؤكد بذلك عن المساهمة الكبيرة التي قدمها الطلبة الزيتونيون لدعم الثورة «وقد نفّذ الإضراب العام في الجزائر وتونس، وكنت آنذاك طالباً بجامعة الزيتونة في تونس ومسئولا في جمعية الطلبة الجزائريين شاركت مع عدد من زملائي الطلبة في مراقبة تنفيذ الإضراب في مؤسسات التعليم التونسية، وقد وجدت صعوبة كبيرة في إخراج الطالب "طيطونة مبارك"، من المدرسة الخلدونية حيث كان يؤدي الامتحان، ولم أقنعه بالخروج إلا بعد أن ساعدني الأستاذ التونسي المشرف على الامتحان في إقناعه بأهمية عدم خرق إجماع الطلبة فامتثل وخرج».[26]

ومن الزيتونيين الرواد السوفيين المؤسسين للإتحاد العام لطلبة الجزائريين وفروعه، نذكر: خليفة الجنيدي بن عمار، أبو القاسم سعد الله،... وغيرهم كثير، وعقب إضراب فيفري 1957م الشهير أعلنت جمعية الطلبة الجزائريين بتونس الإضراب لمدة أسبوع في نداء وجّهته للطلبة الجزائريين بتونس إعلانا عن تمسّكهم بالثورة والشعب الجزائري، كما أعلن المعتقلون الجزائريون بتونس إضراب الجوع أُسوة بإخوانهم المساجين السياسيين بسجون الجزائر وتضامنهم مع شعبهم المكافح».[27]

إن الطلبة الجزائريين عموماً واكبوا الثورة المسلحة وتلاحموا معها التحامًا عضويًا من

25- السابق، ص87.

26- مقابلة مع الأستاذ يحي بوعزيز.

27- **المقاومة**، ع7، الجزائر: 1957/02/16م.

أولها إلى آخرها وأدّوا دورًا بارزًا مشرفًا في كل معاركها العسكرية والسياسية والتنظيمية داخل الجزائر وخارجها وضحوا بالغالي والنفيس في سبيل إنجاحها وانتصارها وقدّموا شهداء عديدين يعدّون بالعشرات والمئات وعانوا كل ما عاناه شعبهم من الآلام والتعذيب والتشريد والتقتيل إلى أن تحررت بلادهم وشعبهم وتحقق الاستقلال الوطني، كما أن أهم سِمة وصفة فصلوا بها أنفسهم عن الطلبة الفرنسيين الأروبيين المستعمرين هي الإسلام... وسمّوا اتحادهم العام للطلبة المسلمين الجزائريين، كما فعل العلماء الجزائريون قبلهم بربع قرن عندما سموا هيئتهم، ودادية الطلبة المسلمين في الجزائر، وذلك أن الإسلام كان أكبر واق وحاجز للشعب الجزائري في كفاحه لطمس الشخصية الوطنية للجزائر وشعبها وفرنسة الشعب الجزائري وتنصيره وتمسيحه[28].

مما تقدّم نخلصُ إلى القول أن الطلبة الزيتونيين الجزائريين حاربوا ضد جبهات كثيرة كان أقواها الاستعمار الفرنسي وأعوانه، ولكنّ ذلك لم يمنع الطلبة من القيام بدور تاريخي مشرّف، إذ شاركوا في صفوف الثورة مجاهدين مثلما كانوا أحسن صوتٍ مثّل الجزائر في الخارج بالمحافل الدولية بواسطة التنظيمات الطلابية التي أسّسوها، ولم يمنع ذلك الطلبة من مواصلة التحصيل العلمي في ظروف قاسية وتمكّنوا من إدارة شؤون البلاد بعد الاستقلال مثلما قاموا بدور متفرد في التاريخ بمساهماتهم في بناء وتشييد الدول التي تمدرسوا بها، ومن ذلك ما قاموا به في تونس حيث قادوا حركة النضال السياسي والصحفي والفكري التونسي وسيّروا كثيرًا من دواليب إدارتها.

إذن تبلوّر الصراع بين النخبة الزيتونية وبين إدارة الاحتلال الفرنسي في الجزائر حول الأمور التالية:

- حرية عمل النخبة في إطار الدعوة بالوعظ والإرشاد في المساجد.
- حرية التعليم العربي.
- مقاومة سياسة التجنيس والتنصير التي اتبعتها فرنسا في الجزائر.
- حرية النوادي تأسيساً وتمويلاً ونشاطاً.

لقد كانت هذه المسائل الأربعة بصفة عامة هي مدار الاحتكاك والصراع بين النخبة الزيتونية (بأشخاصها ونواديها وصحافتها) من ناحية وإدارة الاحتلال على اختلاف المسؤولين عنها من ناحية أخرى، منذ تخرّج كل دفعات التحصيل من جامع الزيتونة وعودتها إلى الجزائر إلى غاية قيام الثورة الجزائرية 1954م، لقد كانت فرنسا قبل بناء النهضة الإصلاحية وبالخصوص قبل منشأ (ج.ع.م.ج) تستهين برجال الدين الإسلامي بوجه عام

28- بوعزيز (يحي)، **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، الجزائر: د.م.ج، 1999م، ص 369.

وتعتبرُهم أناسٌ غير ناضجين سياسياً أو على الأقل تنقصهم الثقافة الحيّة والواعية لمحاربتها والعمل على إفساد خُططها سواءٌ ثقافية أو اقتصادية أو سياسية تجاه الشعب الجزائري ولذلك لم تعترض في البداية على توجيه الرحلات العلمية إلى جامع الزيتونة أو إنشاء خريجيها بعد عودتهم لمدارس حرة، وصحافة مستقلة أو على تكوين جمعية العلماء ومنحها رخصة العمل، غير أن الأمور تغيّرت بعد تصاعد المد الإصلاحي والتربوي في منتصف الثلاثينيات.. حيث بدأت إدارة الاحتلال تغير من سياستها تجاه الأنشطة واعتبرتها فيما بعد معادية للمصالح الفرنسية في الجزائر[29]، ولقد تمثّلت الخطط الفرنسية المضادة لضرب أعمال النّخبة الزيتونية ومن خلالها ضرب الشخصية الجزائرية ومقوّماتها.

- استولت على معظم المعاهد والمدارس الحرّة الموجودة بالجزائر وإخضاعها للمراقبة والمتابعة المباشرة.
- تصفية معاهد الثقافة العربية وقصْرها على ثلاث معاهد في قسنطينة والجزائر وتلمسان.
- إحلال الثقافة الفرنسية والمسيحية محل الثقافة العربية الإسلامية.
- عدم الاعتراف بشهادات خريجي الزيتونة خصوصاً في التوظيف التعليمي المسجدي والتضييق على أصحابها واعتبارهم متمرّدين وعُصاة.
- الاستيلاء على أراضي الحبوس التي كانت تموّل المؤسسات التعليمية الجزائرية مالياً وثقافياً مما أدى إلى تصفية الأخيرة.
- محاولة فرنَسة المناطق البربرية بعزلها عن المناطق العربية ومنع نشر الثقافة العربية الإسلامية فيها حتى يسهل بالتالي القضاء على شخصيتهم الوطنية.
- تصفية معاهد تعليم العربية الحرّة واضطهاد معلميها بقصد صرفهم عن العمل في معاهد التعليم الحر، والتقتير في منحهم رُخص العمل، كما قامت فرنسا بتعطيل النوادي العربية الحرّة التي تقوم بنشر اللغة العربية بين الشباب.
- دعم الطرقية الصوفية المنحرفة؛ مما أدى إلى إفساد الفطرة الإسلامية وتفكيك روح الأخوّة الإسلامية والخضوع للاستعمار وتشويه صورة رجالات الإصلاح لدى كثير من أتباع هذه الطرق.
- رفض فرنسا العلمانية منذ 1789م مبدأ فصل الأديان الخاصة بالدولة على الديانة الإسلامية التي أبقتها تحت سيطرتها المباشرة كما حاولت تنصير البربر بمنعهم من تعلّم اللغة العربية ومنع العلماء خصوصاً من خريجي جامع الزيتونة من التدريس إليهم وهكذا تلعب

29- بلاسي (أحمد)، **الاتجاه**، مرجع سابق، ص33.

فرنسا دوراً دينياً جديداً مع ديانة لا تَفهمُ فيها شيئاً سوى الاضطهاد[30].

أما عن استئصال عوامل هجرة الطلبة الجزائريين إلى الزيتونة والحيلولة دون التحاقهم بهذه المؤسسة، يرد الحاكم العام الفرنسي للجزائر على وزير الداخلية الفرنسية بما يلي: « أحول دون هجرة الطلبة إذا توفرت لدي الوسائل الناجعة لمنع هذه الهجرة... ولكن هؤلاء الشبان يمتنعون كلهم عن طلب رخص الخروج من الجزائر (أو جواز السفر)... يسافرون بطرق-غير شرعية- وليس لدينا أية وسيلة لمنعهم من مغادرة إقامتهم نحو أي بلد كان، ومما يحول دون فرض رقابتنا عليهم هو أنهم لا يسافرون عن طرق البحر أين نستطيع أن نراقبهم في الموانئ ونلقي عليهم القبض لعدم إحرازهم على جواز سفر ولكنهم يضعوننا أمام مشكلة حقيقية عندما يسافرون عبر البر...».[31]

ولم تتوقف هجرات الطلبة الجزائريين إلى الزيتونة ونيران الحرب العالمية الأولى مشتعلة ورغم الأخطار والصعوبات والعراقيل التي وضعها قانون (1914/07/15)م الذي ألغى نهائيا رخص السفر إلى الخارج، وألزم كل الأهالي بالاستقرار في مناطقهم الأصلية، استمرت هجرة الطلبة الجزائريين إلى تونس والتحق بعضهم بجامع الزيتونة متحديا المخاطر والتعب والإرهاق مشيًا على الأقدام.

واختلفت العقوبات التي سلطتها الإدارة الاستعمارية على هؤلاء المهاجرين إلى تونس باختلاف انتمائهم الجهوي، وبالنظر إلى ما لديهم من قوّة مادية وجاه، فمنهم من كان يرمى في غياهب السجون لمدة غير محدودة، ومنهم من كان يسجن لمدة معيّنة بعد إحالته على المحاكم الفرنسية ويُفرج عنه مقابل غرامة مالية، بل فيهم من سجن بدون محاكمة، ومنهم من لم يتعرض لهذا التعسف والإجحاف لما كان يلقاها من مساعدة مادية ومعنوية من طرف ذويه وأهله فيُفرج عنه وقت رجوعه إلى الجزائر، وتعتبر قضيته منهية، ولكن الذي يهمّنا هو مدى تأثير هذه الإجراءات التعسفية الفرنسية على المهاجرين الجزائريين، أو بالأحرى على الذين كانوا يرغبون في الهجرة.

أما الجانب الإداري فكان هو الآخر يشكل عائقا أمام الطلبة الراغبين في التنقل من الجزائر إلى تونس للدراسة بجامع الزيتونة، حيث كان يشترط أن تمر طلبات الدراسة على المصالح المختصة التي تحيلها إلى الإقامة العامة الفرنسية بتونس ومن ثم إلى مشيخة الجامع الأعظم، وتتعدد القنوات التي تمر بها طلبات الطلبة الراغبين في الدراسة بالزيتونة

30- للتوسع يراجع: - الجزايرلي (يوسف)، **الجزائر أرض البطولة**، مصر: الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب، ب.ت، ص.ص (575- 576). - بلاسي (أحمد)، **الاتجاه العربي**، مرجع سابق، ص.ص(33- 49).

31- أرشيف ما وراء البحار، أكس. آن. بروفانس، 14ه - 41 (42). رسالة إلى الحاكم العام إلى وزير الداخلية بدون تاريخ، نقلا عن: هلال (عمار)، "الطلبة الجزائريون في الأزهر عام 1916م"، **الثقافة**، ع79، الجزائر: جانفي/فيفري 1984م، ص137.

وفي تعدد هذه القنوات كثيرا ما تضيع على الطالب الفرصة نتيجة الإجراءات الإدارية الروتينية نظرًا إلى أن بعض الطلبات تكون ناقصة لبعض الوثائق أو تكون على شكل طلب إرشادات.

فقد ورد في مراسلة موجهة من طرف القنصلية الفرنسية بسوق الأربعاء (جندوبة حاليا) إلى وزير الخارجية الفرنسي تحت رقم 3202 بتاريخ: 1900/12/22م، ذكر لعدد من الطلبة الجزائريين تم إبعادهم من تونس في حواجز أمنية قرب الحدود في الداخل التونسي.. حيث تم طرد الطالبين: "اليلمامي محمد" و"بن جبة البشير بن العايب" و"مرزوق ربيعة"، «طبقا للإجراءات المتخذة في 23 نوفمبر الأخير [يقصد سنة 1900] لي الشرف أن أعلمكم بأنه تم رفض وإبعاد الأشخاص الآتي أسمائهم: اليلمامي الصالح بن محمد، وبن جبّة البشير بن العايب، حال وصولهم إلى الحدود.. أما المعروف بمرزوق بن ربيعة بن محمد السعيد فلم نتحصل بعد على معلومات شاملة عنه بخصوص وصوله إلى تونس»[32]، ووقّع على هذه المراسلة المراقب المدني بالقنصلية الفرنسية.

وقد سبقت هذه المراسلة مراسلة أخرى تحت رقم 3118 بتاريخ: 1900/11/08م من ذات القنصلية موجهة إلى ممثل الحكومة العامة بخصوص منع الطلبة الجزائريين من السفر في حال عدم حيازة التراخيص المطلوبة وتضمّنت هذه المراسلة شرح مفصل عن الطالب السابق الذكر (مرزوق بن ربيعة) والذي تبيّن أنه طالب بجامع الزيتونة كان قد قطع الحدود مشيًا على الأقدام وبدون ترخيص عن طريق بلدة سوق أهراس، وعندما التحق بالجامع غيَّر اسمه حتى يتملص من رقابة الشرطة الفرنسية وكانت شرطة الحدود قد رمزت له بالمسافر رقم 2796.[33]

وللقضاء على النشاط الطلابي الجزائري بالجامع الأعظم اقترح المقيم العام على وزارة الشؤون الخارجية بباريس التخفيض من عدد الطلبة الجزائريين بالعاصمة، بواسطة تحديد قبول المترشحين سواء بجامع الزيتونة ذاته أو بمدارس سكنى الطلبة الموجودة بالعاصمة «وسينجرّ عن ذلك حتماً إقصاء عدد كبير من الشبان عن الجامع الأعظم بتونس وهو أمر ملائم لنا إلى أبعد الحدود»، فقد تمّ في 1925/11/28م طرد أربعة (04) طلبة من الجامع الأعظم ضمت بالإضافة إلى الطالب الجزائري عبد الرحمان اليعلاوي كل من: العربي القروي ومحمد النجار، وأحمد الشطي.[34]

---

32 - A.N.T, Série A, C 277, Dossier 6, doc n° 07.

33 - A.N.T, Série A, C 277, Dossier 6, doc n° 03.

وللتوسع أكثر في هذه الإجراءات التعسفية ضد الطلبة الجزائريين يراجع:

A.N.T, Série A, C 277, Dossier 6, N°P 70.

34- العياشي (المختار)، **الزيتونة**، مرجع سابق، ص224.

وورد في إحدى الوثائق الأرشيفية قائمة بأسماء الطلبة المرفوتين من جامع الزيتونة والمتعرّضين للتتبعات العدلية من أجل نشاطهم السياسي خلال الفترة (1910- 1945)م وهذه القائمة تعطينا إحصاء مهم للوجود الطلابي الجزائري وتأثيره القوي في الساحة الزيتونية، قياساً بردّ السلطات عليه (الرفت)، والذي لا يكون إلا نتيجة لتحرك نشيط تراه مشوباً بالخطر على مصالحها، واعتماداً على هذه القائمة نجد أنه من مجموع (203) زيتوني مرفوت نجدها تضم (91) طالب جزائري بما يعادل تقريباً 50% أي نصف المرفوتين من الجامع خلال هذه الفترة وهي نسبة كبيرة جداً، إذا ما قارناها بعدد الطبلة الجزائريين القليل والتونسيين الكثيف في الجامع، وهذا دلالة أخرى على حركية العمل السياسي والنقابي الطلابي الجزائري في رحاب جامع الزيتونة هذا مقابل 105 طالب تونسي وسبعة (07) طلبة مغاربة.[35]

وجاء في مذكرات السبتي بودوح «كان الطلبة الجزائريون متبوعين ومراقبين من طرف البوليس السري الفرنسي بالأخص الأوراسيون الذين كان مقر سكناهم معروفاً لدى الجميع، فالبوليس السري كان ينتقل من مكان لآخر صاغياً بكل جوارحه ومتتبعاً لما يدور من أحاديث على الثورة من طرف الطلبة الذين كانوا متعطشين وملهوفين لسماع نشاط جيش التحرير الوطني، وكل من سمع خبراً أو حكاية إلا وأسرع ليخبر بها رفاقه وكان له ذلك بمثابة مشاركة في القضية كما يعتبر ذلك فخراً له حيث أتى يسر كل وطني وكل غيور على بلاده، وفي هذا الجو المليء بالمخاطر كان الطلبة الجزائريون يزاولون التعليم جاهلين ما يحيط بهم من مخاطر وأعين الاستعمار التي لا تنام ولا تغفل أو تهمل أي صغيرة أو كبيرة، وأكبر دليل على ذلك أنه ذات يوم بوغتنا بغياب أحد زملائنا ألا وهو (رحماني محمد الصغير)، الأوراسي الأصل فقد اختطفه البوليس السري ولسنا نعلم متى؟ وكيف؟ وسافر به من تونس إلى باتنة حيث أودع السجن وأصبح تحت وحشية الجلادين يعذبونه طالبين منه الإدلاء والكشف عن معلومات حول الثورة، وبقي مدة ليست بالقليلة في السجن ثم أطلق سراحه ورجع إلى تونس...».[36]

وقد اعترف الكتّاب الفرنسيون بعد قيام الثورة في الجزائر سنة 1954م عند تحليلهم لأسبابها ودوافعها بما قامت به إدارة الاحتلال من محاربة المدارس العربية وإغلاقها بدون سبب وجيه ووضع معلميها تحت مراقبة الشرطة أو اعتقالهم حيث أعلن ميتران قائلاً:«لقد خرجنا بحقيقة لا غُبار عليها ألا وهي أن الدولة الفرنسية تعمل على قتل اللغة العربية وعلى تحطيم الدين الإسلامي وعلى تجهيل الأمّة والعلماء يعملون على خط مناقض للخط الحكومي فهم يقومون بالجهود المحمودة لإحياء الإسلام وتطهيره من الخرافات ونشر اللغة

35 - A.N.T, Série D, C25, Dossier 28.

36- بودوح(السبتي)، **مذكرات مجاهد**، الجزائر: مطبعة عمار قرفي، 2002م، ص19.

العربية ورفْع الأمية عن الأمة غير مبالين بالعقبات ووسائل الزجر والتنكيل».[37]

4. آثار وانعكاسات أدوار النخبة الزيتونية في الحياة الجزائرية

كثيُر من المؤرخين في الجزائر يربطون الإصلاح في الجزائر بجمعية العلماء، والواقع أن مفهوم الإصلاح أوسع من مفهوم جمعية العلماء كما أنه أقدم منها، فهو أوسع من مفهومها لأن عدداً من المثقفين كانوا مصلحين ولكنهم لم يكونوا أعضاء في جمعية العلماء وكانوا يخالفونها في بعض مبادئها وغاياتها، ومن جهة أخرى يعتبر الإصلاح في الجزائر أقدم من جمعية العلماء، فالجزائر عرفت عناصر كثيرة نشطت قبل الجمعية ودعت إلى الإصلاح وكانوا متأثرين بالحضارة الفرنسية من جهة وبتيار الجامعة الإسلامية من جهة أخرى، ولعل السبب في الخلط بين الإصلاح وجمعية العلماء كون هذه قد شخَّصت الحركة الإصلاحية في الجزائر وأعطتها دفعة جديدة ومدرسة جديدة لم يكن الإصلاح القديم قد قام بها، بالإضافة إلى أن جمعية العلماء قد ولدت نتيجة الحركة الإصلاحية وليس العكس.

والمدرسة الإصلاحية التي نقصدها قد ولدت بعد الحرب العالمية الأولى خصوصاً، نتيجة لعدة عوامل لعل أهمها هو عودة النخبة الجزائرية من المشرق بما فيهم الطلبة خريجي الزيتونة بعد أن تسلحوا بثقافة جديدة هدفها نشر التعليم وإحياء اللغة العربية وبث الإصلاح الديني والاجتماعي وإعداد الشعب لتولي مسؤولياته السياسية والقومية، ولما كان ابن باديس أسبقهم في العودة إلى الجزائر وأعرفهم بها فإنه شرع في مشروعه انطلاقاً من مدينة قسنطينة التي كانت بوابة الجزائر نحو المشرق حيث تنفتح على تونس مهد جامع الزيتونة وصلة الوصل بين المشرق والمغرب، وبسبب حاجة هذه المدرسة إلى هيئة تمثل الاتجاه العربي الإسلامي التقدمي بمفهوم ذلك الوقت يكون هدفها نقد المجتمع وتطهير الدين وفضح أساليب الاستعمار وبعث الشخصية الوطنية فكان أن تأسست جمعية العلماء المسلمين في سنة 1931م ضامة إليها مختلف العناصر الحية في أول أمرها، ولكنها سرعان ما أصبحت حكراً على الاتجاه الذي كان يمثّله ابن باديس والميلي والإبراهيمي وتلاميذهم خصوصاً منهم خريجو الزيتونة الذين كانوا يشكلون النسبة الأكبر من رواد هذه المدرسة الإصلاحية.

وأهم ميزة تميزت بها هذه المدرسة هو إيمانها بالوطنية الجزائرية، هذا الإيمان والعمل أيضاً هو الذي جعل المعاصرين لا يفرقون بين الإصلاح الثقافي والديني وبين الإصلاح السياسي فقد جعلت همها بعث الشخصية الجزائرية المتمثلة في الثقافة العربية والتعاليم الإسلامية الصحيحة[38]، وقد استخدموا وسائل كثيرة ومتنوعة لنشر دعوتهم منها الصحافة

37- **البصائر**، ع270، الجزائر: 1954/05/07م، ص1.

38- للتوسع يراجع: سعد الله (أبو القاسم)،" مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي"، **الثقافة**، ع79، الجزائر: جانفي/فيفري 1984م، ع79.

التي افتتحوا بها عهدهم وركّزوا عليها لنشر أفكارهم.

ويمكننا القول بأنهم كانوا في نفس الوقت مصلحين وصحفيين فابن باديس ابتدأ بنشر مقالاته في الإقدام ثم أسس المنتقد والشهاب وأنشأ مطبعة، وكانت مقالاته يغلب عليها الطابع الصحفي، كما ابتدأ المدني حياته بإنشاء (تقويم المنصور) في تونس ثم في الجزائر ثم المساهمة في الشهاب والبصائر، ونشر الشيخ سعيد الزاهري معظم مقالات كتابه (الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير) في مجلة (الفتح) المصرية، فالصحافة عند هؤلاء كانت وسيلة رئيسية لبث مبادئهم، ولم تكن الصحافة العربية وحدها التي تحمل مبادئ الإصلاح بل كانت هناك صحف بالفرنسية أيضا، وعلى رأسها جريدة (الدفاع) التي كان يحررها الأمين العمودي ومنها جريدة (الشباب المسلم) التي صدرت بعد الحرب العالمية الثانية.

لقد أثّر الزيتونيون تأثيراً كبيراً على الحياة الثقافية عامة، فكان لهم الفضل في نشر البيان العربي السائد عندئذ في المشرق وتصفية اللغة العربية في الجزائر من العجمة التي انتشرت فيها خلال عهد طويل على يد المستشرقين الفرنسيين والعلماء المزدوجين الذين كانت تغلب عليهم اللغة الفرنسية بحكم منطق (الغلبة للأقوى).

وقد ساهمت المبادرات الإصلاحية والتعليمية والثقافية بشكل أعم للنخبة الزيتونية في ربط الجزائري بماضيه وتذكيره بأمجاده وإحياء تراثه عن طريق الكلمة المكتوبة شعراً ونثراً، والكلمة المقولة، أما الكلمة المكتوبة فقد نشرها أصحابها عن طريق الوعظ والإرشاد في المدارس وعن طريق تشجيع الخطابة لدى التلاميذ وتمثيل المسرحيات التاريخية والاجتماعية ونحو ذلك كما كانوا هم أيضا يفعلون في مدارس سكنى الطلبة بتونس، ويعجزنا المجال لو أننا حاولنا هنا أن نتقصى كل مظاهر هذا النشاط ورصد أبعاده.

فقد تقدم فن النثر على يد هذه النخبة وأصبح لدينا على الأقل مدرستان لهذا النثر:

- مدرسة الشهاب المتميزة بالأسلوب الصحفي الديني.
- مدرسة البصائر المتميزة بالأسلوب الأدبي الاجتماعي.

وقد ظهر في كلا المدرستين كتاب تركوا بصماتهم في مجالات متعددة، ونذكر من المدرسة الأولى (الزاهري، الزواوي، أبو اليقظان، محمد الصالح رمضان...)، ومن المدرسة الثانية (المدني بوكوشة، عاشور الخنقي، محمد خير الدين...)، وفي ميدان القصة والرواية ظهرت بوادر طيّبة بين الحربين ازدادت نمواً ونضجاً بعد الحرب الثانية ويطول بنا الحديث لو مثّلنا لهذه الأنواع وحسبنا هنا أن نحيل على بعض المراجع المتخصصة[39]. كما أسهم

39- للتوسع راجع: الجابري (محمد الصالح)، **الأدب الجزائري في تونس**، ج1،ج2، تونس: بيت الحكمة، 1991م- ركيبي (عبد الله)، **الشعر الديني الجزائري الحديث**، الجزائر: م.و.ك، 1981م –وكتابه- **تطور النثر الجزائري الحديث**، الجزائر: م.و.ك، 1983م.- سعد الله (أبو القاسم)، **دراسات في الأدب الجزائري الحديث**، ط2، القاهرة: =

الزيتونيون في الكتابات الإصلاحية وغيرها من الموضوعات الدينية، ويتصل بالنثر أيضا تقدم الخطابة على يد أصحاب هذه المدرسة واشتهر في هذا الباب (الميلي، الزاهري، التبسي المدني...)، وممن عرفوا من خطباء الجيل الثاني: الفضيل الورتيلاني، عبد القادر الياجوري... وقد تركوا لنا ثروة كبيرة في هذا الصدد.

أما في الشعر فقد أصبح شعراء النخبة الزيتونية في مستوى شعراء المشرق العربي، ويعود الفضل في بعث الشعر الإصلاحي إلى أمير شعراء المغرب العربي والزيتوني المخضرم محمد العيد آل خليفة، وقد عاصره عدد كبير من الشعراء منهم من تخصص في نظم الشعر ولم ينثر إلا نادراً كالهادي السنوسي ومفدي زكريا وجلواح وحمود رمضان، ومنهم من جمع بين الشعر والنثر كأحمد سحنون وسعيد الزاهري، وهكذا تكون النخبة الزيتونية قد تقدّمت بالجزائر في عدة ميادين دينية وقومية وأدبية وإصلاحية....،

أما الشيء الهام في نظري الذي سجّله التاريخ لطلبة الزيتونة هو أن هؤلاء أقبلوا على الثقافة العربية يرتوون من منابعها الأصيلة، وذلك في وقت لم تكن فيه هذه الثقافة الأخيرة تضمن لصاحبها حتى قوته اليومي، وفي وقت كانت فيه اللغة الفرنسية هي "لغة الخبز"، وكان بوسع الكثير منهم أن يدرسوا اللغة الفرنسية ويتفوقون في دراستها كما تفوقوا في دراسة اللغة العربية، لكن لم يفعلوا حيث ذكر الأستاذ "أبو القاسم خمار" أن والده منعه من مزاولة دراسته بالفرنسية التي كان متفوقاً فيها، لأن مدارسها لا تحترم مواقيت الصلاة، ولا تسمح للتلاميذ بتأدية صلاتهم في أوقاتها.[40]

5. خاتمة

وفي نهاية هذه الدراسة نستطيع أن نحدد المجالات العامة التي كانت انعكاساً بارزاً لنشاط النخبة الزيتونية في الجزائر وهي على ثلاثة أمور:

- إيقاظ وبعث الوعي الوطني بين الجزائريين: لقد سعت النخبة الزيتونية عن طريق أنشطتها الوطنية والتربوية والتعليمية والسياسية في أطرها المتنوعة (جمعية العلماء- حزب الشعب- التعليم الحر بمعاهد وادي ميزاب) أن تتناول المواقف البارزة في التاريخ الإسلامي والجزائري وتقوم بعرضها في الحفلات والمهرجانات التي تقوم مختلف المدارس والمعاهد والنوادي بتنظيمها في المناسبات الوطنية والدينية، كما أن المحاضرات المتنوعة التي كانوا يلقونها في المساجد والنوادي كانت للجزائريين (عوامّهم ومثقفيهم واقع بلادهم المتردي من جميع النواحي وتدعوهم إلى نبذ الخمول والكسل والخوف من أجل النضال في سبيل تحرير

=دار الآداب، 1970م.- مصايف (محمد)، **الرواية العربية الجزائرية الحديثة**، الجزائر: ش، و، ن، ت، 1983م.- وكتابه: **النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي**، الجزائر: م، و، ك، 1984م.

40- **الشعب**، الجزائر: 1984/11/08م.

بلادهم واسترجاع مقومات شخصيتهم وقد كان لها تأثيرها البالغ في إيقاظ الوعي الوطني بين الجزائريين.

- ربط الجزائر ثقافياً وحضارياً بثقافة وحضارة اللغة العربية والقرآن: لقد كانت هذه النخبة المتنورة من العلماء والمدرسين والوعاظ والسياسيين تؤمن بدور القرآن الكريم الذي كان تعليمها الحر يجعله محو الدراسة سواء في المنهاج أو البرامج والنظم ومختلف النشاطات الأخرى.[41]، وبذلك ساعد هذا التعليم مساعدة فعالة على توجيه دفة السياسة الجزائرية التي كانت تتصارع حولها عدة اتجاهات خلال العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين تتراوح ما بين الاندماج الكامل في فرنسا ضمن نطاق حضارتها العربية الإسلامية، وقد تبنت النخبة مناهج التعليم العربي الحر لأنه اتجاه ينسجم مع رسالتها الثقافية والقومية.

- المحافظة على الشخصية الجزائرية: لقد عملت هذه النخبة على إحياء الشخصية الوطنية والمحافظة عليها، وهي بذلك أدت إلى ذوبان الاتجاهات الإندماجية والمفرنسة في بوتقتها وبالتالي أفشلت السياسة الفرنسية في الجزائر والهادفة إلى فرنسة الجزائريين وتجنيسهم ودمجهم في إطارها الخاص.

6. قائمة المصادر والمراجع.

أ- المصادر:

الوثائق:

1. A.N.T, Série A, C 277, Dossier 6, doc n° 07.
2. A.N.T, Série A, C 277, Dossier 6, doc n° 03.
3. A.N.T, Série A, C 277, Dossier 6, N°P 70.
4. A.N.T, Série D, C25, Dossier 28.

الدوريات المصدرية:

1. البصائر، ع270، الجزائر: 1954/05/07م
2. الثمرة الأولى (إصدار ج.ط.ز.ج)، تونس: مطبعة الشباب، 1937م
3. الشعب، الجزائر: 1984/11/08م.
4. الشهاب، ج4-5، مج14 ع(6- 7)، الجزائر: 1938م.
5. المقاومة، ع7، الجزائر: 1957/02/16م

ب- المراجع:

المؤلفات:

1. برهان (غليون)، **مجتمع النخبة**، ط2، تونس: دار البراق، 1994م.
2. بلاسي (نبيل أحمد)، **الاتجاه العربي الإسلامي ودوره في تحرير الجزائر**، مصر: الهيئة

41 - وعن دور القرآن في برامج نظم التعليم راجع: الشيخ ابن باديس في مقال له بجريدة الشهاب، ج4-5، مج14، ع(6- 7)، الجزائر: 1938م.

المصرية العامة للكتاب، 1990م.
3. بودوح(السبتي)، **مذكرات مجاهد**، الجزائر: مطبعة عمار قرفي، 2002م .
4. بوعزيز (يحي)، **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، الجزائر: د.م.ج، 1999م
5. الجابري (محمد الصالح)، **الأدب الجزائري في تونس**، ج1،ج2، تونس: بيت الحكمة، 1991م.
6. الجابري (محمد الصالح)، **النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس**، تونس: الدار العربية للكتاب 1983م
7. الجزايرلي (يوسف)، **الجزائر أرض البطولة**، مصر: الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب، ب.ت.
8. جلال (يحي)، **السياسة الفرنسية في الجزائر**،، مصر: دار المعرفة، 1959م
9. جوليان (ش،أ)، **أفريقيا الشمالية تسير**، تونس: الدار التونسية للنشر، 1976م
10. جوهر (حسن محمد)، مرسي (محمد أبو الليل)، **الجزائر**: مصر، دار المعارف، 1965م
11. حماني (أحمد)، **شهداء علماء معهد بن باديس**، الجزائر: قصر الكتاب، 2004م
12. الخطيب (أحمد)، **الثورة الجزائرية (دراسة وتاريخ)**، بيروت دار العلم للملايين،1958م
13. ركيبي (عبد الله)، **الشعر الديني الجزائري الحديث**، الجزائر: م.و.ك، 1981م
14. ركيبي (عبد الله)، - **تطور النثر الجزائري الحديث**، الجزائر: م.و.ك، 1983م
15. سعد الله (أبو القاسم)، **دراسات في الأدب الجزائري الحديث**، ط2، القاهرة: دار الآداب، 1970م.
16. سعد الله (أبو القاسم)، **خارج السراب**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2005م .
17. السيد (رضوان)، **مفاهيم الجماعات في الإسلام**، بيروت: دار المنتخب العربي، 1993م
18. عباس (محمد)، **البشير الإبراهيمي (أدبياً)**، الجزائر: د.م. ج، بلا، ت،
19. علي الكنز، **حول الأزمة، دراسات حول الجزائر والعالم العربي**، الجزائر، دار لوشان للنشر، 1990
20. العياشي (مختار)، **الزيتونة والزيتونيون في تاريخ تونس المعاصر**، تونس: مركز النشر الجامعي، 2003م
21. فضلاء (محمد الحسن)، **المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر**، ج1، ج2، ج3، الجزائر: دار الأمة، 1999م
22. مصايف (محمد)، **الرواية العربية الجزائرية الحديثة**، الجزائر: ش، و، ن، ت، 1983م
23. مصايف (محمد)، **النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي**، الجزائر: م، و، ك، 1984م.
24. بن نعمان (أحمد)، **مولود قاسم نايت بلقاسم**، ط2، الجزائر: در الأمة، 1997م
25. هلال (عمار)، **نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954م**، الجزائر: دار هومة، 2004م
26. Gramsici (Antonio), la Formation des Intellectuels, l'Organisation de la culture, Paris: éd. sociales, 1977

27. Lahouari addi , l'impasse de populisme , édition E.n.a.l, Algérie, 1990

المقالات:

1. تركي (رابح)، "الصراع بين ج ع م ج وإدارة الاحتلال الفرنسي في الجزائر"، **الثقافة**، ع85، الجزائر: جانفي/ فيفري 1985م
2. سعد الله (أبو القاسم)،" مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي"، **الثقافة**، ع79، الجزائر: جانفي/فيفري 1984م، ع79
3. شريط (عبد الله)، الأدب العربي الحديث"، **الأصالة**، ع13، الجزائر: 1973م
4. هلال (عمار)، "الطلبة الجزائريون في الأزهر عام 1916م"، **الثقافة**، ع79، الجزائر: جانفي/فيفري 1984م.